SIZED

New York
University

QALLINI FAHMI.

مذكرات
قلينى فهمى باشا

MUDHAKKIRĀT QALLĪNĪ FAHMĪ BĀSHĀ

الجزء الاول

١٩٤٣

طرائف ونوادر

عن بعض حوادث الماضى

Oversize
DT
107
.2
.Q14
A3
V.1
c.1

APR 30 1998

02532 1285

الإهداء

مرفوع بيد الاكبار والاجلال

لمقام صاحب الجلالة مولانا المليك المحبوب

فاروق الاول المعظم

مولاى صاحب الجلالة:

لى الشرف العظيم ، بأن أرفع لمقامكم السامى الكريم ، بعض الذكريات التى دونت فيها ما شاهدته ، أو سمعته ، أو عرفته ، أو كانت لى به صلة من الحوادث

صاحب الجلالة المغفور له الملك فؤاد الاول

البارزة ، والوقائع الهامة التى جرت فى عهد جدكم العظيم المغفور له المصلح الكبير الخديوى اسماعيل مجدد مصر ، ومحيى نهضتها الحديثة . ومن أعقبوه من الخديويين الذين تداولوا عرش مصر ، الى عهد والدكم الكريم المغفور له الملك فؤاد الأول طيب الله ثراهم أجمعين .

على أن يامولاى . ذكريات أخرى ، كلها فى مجموعها ، كبيرة الشأن ، جليلة القدر ، جديرة بالأذاعة المقرونة بالاكبار . لأنها ترديد للمآثر الموطدة ، وترنيم بالمفاخر الخالدة ، التى ملأ والدكم العظيم بها سمع البلاد ، وملأتم أنتم من بعده بمحاسنها بصر العباد ، فكان له الفضل الاكبر فى الرقى بمصر من أمارة تحت سيادة ، الى مملكة ذات سيادة ، حرة مستقلة ، تخفق أعلامها فى حواضر البلدان الكبرى ، وتنتشر شهرتها تحت كل سماء ، وتفسح لها السبل لتتبوأ مكانها الرفيع الجدير بنهضتها فى الخافقين

ولقد رأيت يامولاى قبل الشروع فى تدوين تلك الذكريات أن أشير الى تلك المفاخر الحميدة والمآثر المجيدة ، ليجد فيها المطالعون لها الحافز لهم على التطلع الى العلا والسعى وراء مجد البلاد ، كما أوجب على الاخلاص والولاء ، وشعائر الوفاء لذاتكم العلية ، ألا أخرج كتابى هذا الا ومفرقه متوج برسم جلالتكم الميمون ، وصدره مزدان باسمكم العظيم ، الذى سيبقى بين أعاظم رجال التاريخ ، العلم المفرد ، والمثل الأعلى بين ملوك العالمين .

وانى فخور أن أذكر تلك الاعمال الكبرى التى أعلا بها والدكم المبرور شأن البلاد وطوق بمفاخرها جيد الأمة — ولا ريب عندى أن تلك المفاخر تنطق من تلقاء ذاتها من مجرد ذكرها والإشارة اليها ، ببيان عظائم الامور التى تنطوى عليها ، وبكل ما دق وجل من معانيها .

ففى عهده الميمون أصبحت مصر مستقلة ، فوضع الدستور وأنشئت الحياة النيابية ، التى كفلت الحريات العامة والخاصة . وفى عهدكم الزاهر توليتم صيانة الدستور بشتى الضمانات ، وأقمتم العدل والأنصاف بين الناس ، مما يذكر لجلالتكم بالفخر والتمجيد

وكذلك أنشىء التمثيل السياسى لدى الدول العظيمة فأصبح اسم «مصر» عالقا بكل ذهن ، ومرددا على كل لسان . كما اشتركت فى أهم المؤتمرات الدولية . وبذلك ساهمت فى الحضارة العالمية بقسط مذكور . وجريتم جلالتكم على هذه السنة الشريفة فكان لمصر نصيبها المشكور فى أكثر الشؤون الدولية ، التى تشغل أذهان الشعوب ، وتقرر مصائر الأمم

Jal
107
.0122m

وكما كان لجلالته من الاراء الصائبة فى تسيير دفة الشؤون العمرانية والاقتصادية تسييرا محكما ، عاد بجزيل النفع على مرافق البلاد ، فان لجلالتكم فى كل يوم ، فى هذا المجال آيات باهرة ، خلبت الباب الجميع ، وكان من جرائها افاضة الخير العميم على جميع الاهلين .

وان البلاد جميعها يامولاى ، لتذكر مع الفخار ، ما لجلالتكم من ضروب المعاونات السنية ، والنفحات الزكية فى مختلف نواحى الحياة — فقد رعيتم طبقات الفلاحين والعمال ، بالرعاية الجميلة ، التى خففت عن كواهلهم أعباء الحياة الثقيلة فحميتم الضعيف ، وأنصفتم المظلوم . فكانت احساناتكم المتوالية وهباتكم المتدفقة على جماهيرهم تملأ القلوب بالأمل الباسم ، فتعلقت النفوس بشخصكم المحبوب ، وأصبحت العيون ترنو لطلعتكم المشرقة فى الازمات ، واثقة بأن المليك الساهر على خير أمته الوفية ، عامل على اسعاد رعاياه المخلصين

وليست هبات جلالتكم السنية مقصورة على هذه الناحية ، بل هى تتناول متعدد مرافق الحياة فى مصر . حتى غدوتم القدوة العليا ، وأصبحت أعمالكم الباهرة مضرب الامثال .. فأياديكم البيض على التعليم والاداب والفنون ، وموالاتكم المنشئات النافعة ، ورعايتكم للصناعة والزراعة ، وتنشيطكم للحركات الاصلاحية الاجتماعية : كل هذه الشؤون التى هى من غرس ايديكم الطاهرة ، قد أثمرت ثمرتها الطيبة ، بتوجيهكم لها وبنصحكم السديد للعاملين فيها ، وبعطفكم المتوالى على كل منها .

ولو شئت يامولاى أن استوفى مع نهاية الايجاز ، ما لجلالتكم من الأعمال المجيدة ، لأبت على الحصر ، فكيف بها فى هذا الحيز المحدود؟؟

فأرجو يامولاى أن تقع هذه الذكريات ، التى مهدت لها بهذه الكلمة عن خدماتكم النافعة ، لدى جلالتكم موقع القبول الحسن . وأن تجدوا فيها آية جديدة من آيات اخلاصى المعهود ، ووفائى الدائم ، وولائى الصادق لكم ولأجدادكم الكرام الذين وقفت نفسى على خدمتهم والأشادة بأعمالهم ، منذ أقدم العهود ، وظل هذا الاخلاص يزداد فى صدرى ويثمو ويزدهر ويتضاعف فى هذا العصر الزاهر ، عصر جلالة مولانا المحبوب الملك فاروق العظيم ، أدام الله تأييده ، وأعز نصره ؟

الخادم المخلص الأمين

قليني فهمي باشا

مذكرات ...

قليني فهمي باشا

كلمة تمهيدية

قليني فهمي باشا صاحب المذكرات

هذه ذكريات تناثرت فى أحاديث سمعها من فريق من الاصفياء الاوفياء فرغبوا الى فى تدوينهـــا فلم يسعنى الا اجابتهم . والنزول على رغبتهم . ورغبة الأحباء أمر مطاع !

وهذه الذكريات تحوى طائفة من الحوادث الطلية ، وتطوى فى تضاعيفها أشتاتا من النوادر ، والوقائع التاريخية — وهى فى جملتها وتفصيلها تدل دلالة واضحة على ما كان ، وما يزال لها من عميق الأثر ، الذى ترتاح له النفوس : فهى حوادث لا تخلق جدتهـا ، ونوادر لا تبلى روعتها ، لأنها مجموعة من الصور عن أحوال البلاد ، فى أزمان مضت . وعن أخلاق طائفة من أصحاب الشخصيات البارزة الذين تولوا مقاليد البلاد فى تلك الأزمان ، ..

ولقد دونتها من حاضر الذهن ، فلم الجأ فيها الى مطالعة أو مراجعة . وسقتها سوق الحديث يتصل أحيانا ، وينفصل أحيانا ليتفكه بها الواقف عليها ويستجلى من خلالها بعض الحقائق التى لم تجلها الى الآن مباحث المؤرخين لقرب العهد بها — ذلك لأن من عادتى عندما أتناول بالحديث مواضيع تاريخية ، أن لا أرجع فى تدوينها الى مصادر مكتوبة

او أعتمد على عبارات تناقلتها الألسنة ، أو جرت بها الاحاديث . ولكنى أذكر أمورا رأيتها بنفسى ، وعركت حلوها ومرها ، ووعتها ذاكرتى فيما وعت من الحوادث الجسام !

وأرجو أن يجد أبناء الجيل الجديد ما ينفعهم من العبر والمواعظ فى هذه الذكريات بما تخيرته لها من الاسلوب السهل النزيه ، القريب التناول ، كى تقع من نفوس قرائها مثل موقعها الجميل من نفوس سامعيها

والله يتولانى واياهم بجليل عونه وجميل عنايته ؟

قليني فهمي باشا

فى عهد الخديوى العظيم اسماعيل

تمهيد

كانت مصر قبل أن يتولاها الخديوى اسماعيل معدودة ولاية تركية . وكان من يتولاها من الحكام يلقب بلقب « الوالى » ويستمد سلطتها وأوامرها من السلطنة العثمانية ، فكانت العملة تضرب باسم السلطان ، والرتب والنياشين تعطى بفرامانات سلطانية وكان غير مباح لمصر أن تعقد قرضا خاصا بها ، ولا تبرم معاهدات من نفسها مع دول أخرى ، وكان قاضى قضاة مصر — أعنى رئيس المحكمة الشرعية العليا — يعين من الاستانة بفرمان سلطانى .

فاهتم سمو الخديو اسماعيل وكان أكثر الخديويين نشاطاً ، وحباً للعظمة ، حتى حصل على جملة امتيازات جعلت مصر شبه مستقلة . ولم يكن للدولة العلية سلطة عليها فى أمر ، سوى دفع الخراج سنويا — (جزية) ، كما أنه حصل على حق استبدال لقب « والى » بلقب « خديوى » (١) فجعل همه تنظيم حالة البلاد ورقيها فأنشأ السكك الحديدية خصوصا بالوجه القبلى ، إذ لم تكن موجودة .

اصلاحاته

ونقد اهتم كثيرا بتحسين الرى . ففى عهده بنيت كثير من القناطر ، وشقت ترع عديدة للرى ، منها ترعة الابراهيمية وترعة الاسماعيلية ، وانتشرت المدارس ، وتقدم التعليم وأوقف كثيرا من الاطيان لصرف ريعها على المدارس ، كما أنه أوقف تفتيش

(١) كان اللقب المعروف لحكام مصر هو لقب والى مصر وظل هذا اللقب معروفا الى عهد الخديوى اسماعيل — فاسماعيل الذى كانت مطامعه كبيرة جدا ، أراد أن ينال لقبا أعلى من تلك الالقاب يشعر بمقتضاه أنه ملك مستقبل فى بلاده ، حر فى أعماله ، فسعى الى أن ينال لقب خديوى ؛ الذى خوله عقد معاهدات مع الدول الاجنبية ، وصك نقود ، وسن قوانين لمصالح إداريه ونحو ذلك من جميع الاعمال الداخلية التى كانت محرمة على سلفائه ، كما أنه سعى لدى السلطنة سعيا مقرونا بالنجاح لحصوله على حصر الوراثة فى ذريته بعد أن كانت تعطى للاكبر فالاكبر سنا من عائلة محمد على الكبير — وصرف على ذلك أموالا طائلة .

الخديوى العظيم اسماعيل
منشىء مصر الحديثة

الوادى ومساحته ٢٢ الف فدان على كتائب الامة المصرية من نصارى ومسلمين ؛ وظل هذا التفتيش تابعا لوزارة المعارف العمومية ، وأخيرا عملت مساع لتتبعه لوزارة الأوقاف ، كما أنه بعث فى وقته بعثات عديدة لأوروبا طلبا للعلم — وانتظم

حال الأزهر انتظاما يدل على التقدم والرقى ، وفى عهده أيضا انتشرت زراعة القصب والقطن ، وأنشئت « فابريقات » السكر . حيث كان يوجد منها فى الوجه القبلى ثمانية عشر فابريقة ، منها فى مديرية المنيا وحدها ١٢ فابريقة وثلاثة فى أرمنت وضواحيها و٢ فى الفيوم — وأنشئت جملة مساجد للعبادة كما أنه أنشأ جملة سرايات من أفخر سرايات العالم ، وأنشأ أيضا كوبرى قصر النيل ، وشارع الهرم ، ودار الاوبرا الخديوية ، التى تم انشاؤها وشارع الهرم فى خمسة وأربعين يوما . وأول رواية مثلت فى الأوبرا الخديوية . هى رواية (عائدة) المشهورة التى ألفت خصيصا بناء على طلب سموه . ودفع لمؤلفها زهاء عشرين ألف جنيها ثمنا لها .

ثم وجه عناية خاصة لمدينتى القاهرة والاسكندرية ، ففتح بهما شوارع فسيحة فخمة . وأوجد بهما الأنوار . وغرس فيهما الأشجار . وأنشأ الحدائق والبساتين والمتنزهات العامة فأنشأ بمدينة القاهرة حديقة الازبكية .

كما أنه أوجد بمدينة الاسكندريه حديقة النزهة . مما جعل هاتين المدينتين على غرار أعظم المدن الأوروبية . وكان شديد الولع بكل جديد . حريصا على عرشه ما أمكن

صفاته

ومن صفاته التى تحلى بها . أنه كان يبغض بغضا تاما التعصبات الدينية . وكان يرى أن جميع سكان البلاد سواء وأنهم رعاياه المخلصون فكان يعامل الجميع بالمساواة . غير ناظر للمذاهب ولا للاديان . وكان حلو الحديث . جذابا للقلوب . كثير الحركة حتى أنه كان يشرف على مصالح الحكومة بنفسه ويبت فيها بأمره . وقد استدانت مصر فى عهده فوق المائة مليون من الجنيهات صرف جلها فى الاصلاحات والمشروعات التى قام بها لمصلحة البلاد وبعضها فى شؤون خاصة به مثل الحصول من السلطنة العثمانية على حصر الوراثة الخديوية فيه وفى أنجاله بعد أن كانت للاكبر فالأكبر من عائلة محمد على كما سبق الاشارة . وفى الوليمة التى أقامها فى حفلة افتتاح قنال السويس التى دعا اليها جميع ملوك العالم . وكان من مطامعه أن ينادى باسمه امبراطورا على افريقية . وفى انشاء فابريقات السكر بدائرته . وفى وليمة أقامها للسلطان عبد العزيز فى استامبول التى أوجبت انشاء قصر فخم خاص يليق بجلالة السلطان ليتناول غذاءه فيه . وفى جملة هدايا قدمت لرجال البلاط العثمانى . وفى هدايا أخرى فخمة قدمت لعظماء المدعوين فى حفلة افتتاح قنال السويس وعلى الأخص للامبراطورة أوجينى امبراطورة فرنسا .

حفر افتتاح قنال السويس

من الاعمال البارزة فى عهده حفلة افتتاح قنال السويس . ونحن نورد هنا بعض تفصيلات مختصرة عن حفلة افتتاحها :

لما تم حفر قنال السويس ابتدىء فى الاستعداد لما يلزم لافتتاحها رسميا فأبحر الخديوى اسماعيل لاوروبا ، ومعه حاشية كبيرة ، فمر ببلاد فرنسا وانجلترا وألمانيا وايطاليا والنمسا واليونان وباقى البلدان الاوربية لدعوة ملوكها وأمرائها لحضور حفلة افتتاح قنال السويس ، فكان يقابل فى كل مملكة مقابلة تفوق الوصف وينزل ضيفا كريما على ملوكها أياما عديدة

وكان من جراء انفراده بالقيام بهذه الدعوة أن نظرت اليه تركيا بعين الحسد والغيرة حتى أن سلطانها لم يرسل مندوبا من قبله فى هذه الحفلة واكتفى بالايعاز الى سفير انكلترا — الذى ناب عن حكومته — أن يذكر اسمه عند فتح القنال فكان ذلك موجبا لسرور الخديوى ، لأن وجود السلطان على رأس ذلك الاحتفال كان من شأنه أن يقلل من مقام الخديوى فى أعين المدعوين بينما كان غيابه برهانا محسوسا على أن الخديوى فى مصاف الملوك العظام ورمز الاستقلال بحكم مصر .

وقد كانت الامبراطورة أوجينى امبراطوره فرنسا أول من حضر الى موعد الاحتفال ، فاستقبلها سمو الخديوى اسماعيل استقبالا باهرا ، وأنزلها فى سراى الجزيرة ، التى كان قد شيدها خصيصا لها ، وقام بشؤون ضيافتها قياما فاق كل ما أعتاده الملوك ، وأعد لها سياحة فى نهر النيل كانت مضرب الامثال — وكان سموه يرافقها للسهر على راحتها أينما وجدت ، فسرت سرورا عظيما مما لاقته فى أثناء هذه السياحة

وبعد ذلك بدأت تصل للمياه المصرية البوارج الحربية ، والبواخر الفخمة والسفن البحرية العظيمة وعليها علية المدعوين من عواهل أوروبا وكبار حكامها وملوكها فكانت هذه الوفود تقابل بالتحية الواجبة باطلاق المدافع التى ما تكاد تصمت لحظة إلا وتعود للدوى باستمرار وتضاعف طلقاتها تضاعفا ارتجت له السماء والارض !

وفى الموعد المحدد للافتتاح أخذت سفن المدعوين تسير فى القنال من بور سعيد الى السويس يتقدمها النسر — باخرة الامبراطورة أوجينى — إلى أن وصلت الى الاسماعيلية ، حيث أقيم هناك مرقص الاسماعلية المشهور تحت رئاسة الامبراطورة أوجينى واشترك فيه أصحاب التيجان أنفسهم والامراء والامبرات والخديوى ، وقد بذل فيه مالا يستطيع قلم وصفه من البذخ — وصنوف اللذات وألوان المسرات . ورتب فيه مقصف حوى مالذ وطاب من صنوف المأكل والمشرب ، وامتزجت كلها بطرب المرقص . وأنغام الموسيقات والالحاب النارية والزينات المؤتلقة الانوار . حتى لم يبق أحد فى مصر لم يعتبر أنه قد نقل الى عالم الخيالات . فكانت ليلة لم تر العيون لها مثيلا ولن ترى نظيرها الاجيال المقبلة — ولا غرابة فى ذلك فلقد بلغت نفقات هذه الحفلة أربعة ملايين من الجنيهات الذهب ..!

الخديوى اسماعيل والزى الاوربى

وسمو الخديوى اسماعيل كان محبا للتقليد الأوروبى . فهو الذى أدخل زى الملابس الأفرنجية بالبلاد . وأمر أن يكون جميع موظفى الحكومة متزيين بها — كما كان مغرما بالزراعة والصناعة وانتشارهما بالبلاد راجيا رقيهما وتقدمهما . وكان محبا جدا حتى أنه لو ساح فى نهر النيل كانت جميع المراكب والذهبيات تقف حركتها عند مروره بدون أمر ولا تنبيه . واذا سكن فى سراى من سراياته تقفل حركة المرور فى شارع تلك السراى — وفى زمانه تعددت الضرائب . لاحتياج الحكومة لأموال تقوم بجميع اصلاحاتها . ولكن رغما عن ذلك كانت البلاد فى أيامه فى أفراح دائمة وهناء وسرور .

أفراح الانجال

ومن الحوادث البارزة التى تمت فى أيامه ، أفراح الأنجال التى ظلت قائمة أربعين يوما حوت ملذات الدنيا وملاهى العالم . ونقصد بالانجال سمو الخديوى (توفيق) وقد تزوج سمو الأميرة أمينة هانم بنت الهامى باشا (أم المحسنين) . والسلطان

(حسين) وقد تزوج بالأميرة عين الحياة هانم بنت الامير احمد باشا . والبرنس (حسن) وقد تزوج بالأميرة خديجة هانم بنت الامير محمد على الصغير . وزواج أختهم الاميرة « فاطمة هانم » بالأمير طوسن .

وفى هذه الأفراح منحت العطايا وأهديت الهدايا بسخاء عظيم . ووزعت الصدقات على الفقراء والمساكين حتى خيل للعالم أن هذه الأفراح هى أفرح الأمة بأسرها لا أفراح الاسرة المالكة وحدها ..

الحوادث البارزة

ومن أهم الحوادث البارزة فى عهده مايلى .

انشاء المحاكم المختلطة - تشكيل مجلس النواب الاول - مسألة اسماعيل باشا صديق - مشترى أطيان الدائرة السنية - صرف مافيات المستخدمين - الجيش والوزارة المختلطة - هروبه مع السودان والاحباش

الباشوات البارزون

وكان أعظم رجال عصره وأوسعهم شهرة هم الباشوات الآتية أسماؤهم

نوبار . شريف . رياض . على مبارك . طلعت . ثابت . فهمى . شاهين . راسم . فاسم . البرنس حسن . البرنس حسين . اسماعيل صديق . سلطان السيد أباظة . قدرى . اسماعيل محمد . بهجت . عرفان . سلامة . راغب . عبد القادر حلمى . عمر لطفى . على شريف . مصطفى فهمى .

هؤلاء هم أعاظم وقته من البارزين بأعمالهم وصفاتهم ووطنيتهم وسنتكلم عن كل واحد منهم اجمالا عند المناسبة . والخديوى اسماعيل كان عظيم الحركة كثير النشاط .

سخى العطاء - لا تفوته كبيرة ولا صغيرة . وكان يمضى شهرا من كل سنة فى مدينة المنيا للاشراف على مزارعه الخاصة وعلى ادارة معامل السكر . وكان فى ذلك الوقت يتبعه جميع رؤساء المصالح بحيث يخيل للانسان أن الحكومة قد انتقلت الى تلك المدينة . وذلك رغبة منه فى استمرار مباشرته الدائمة لأعمال الحكومة .

وكان فى عهده باشا اغاى الوالدة باشا المدعو خليل أغا له نفوذ يفوق نفوذ كل ناظر فى المملكة ، وكان يخضع لاوامره جميع حكام البلاد ، كما سنأتى على ذلك بالتفصيل .

وكان سمو الخديوى مغرما بالمباهج والمسرات فكان يميل الى سماع الأغانى العربية كما كان يميل الى سماع الاغانى الافرنجية . وكان فى عصره أشهر مغنية تدعى « المظ » وأشهر مغنى يدعى عبده الحمولى وقد نالا من عطفه كثيرا ومن رعايته جزيلا

المحاكم المختلطة

أراد الخديوى اسماعيل أن يجعل مملكته المصرية مملكة تباهى سائر الدول العظمى فى نظامها وترتيبها فأمر بتشكيل مجلس نواب . وهو أول حاكم لمصر فعل ذلك . كما أمر بتشكيل المحاكم المختلطة القائمة الآن بالبلاد ، فكلف وزيرا من أعظم وزرائه قدرة وذكاء وهو المرحوم نوبار باشا أن يطوف بممالك أوروبا ويمهد السبيل لذلك . وينال موافقة تركيا ، وفتح له اعتمادا للصرف على المشروع غير محدود للوصول الى هذا الغرض فسعى نوبار باشا لهذه الغاية الى أن كللت مساعيه بالنجاح ففرح بذلك سمو الخديوى فرحا عظيما ، حيث نال بغيته ، وأمر بتشكيل نظارة الحقانية لهذا الغرض وبهذه المناسبة تذكر أن نوبار باشا قام بجملة أعمال للوطن العزيز تدل على مهارة كبرى ، وفكر واسع مما تذكره له البلاد على الدوام بالشكر الخالد

دخول الاقباط قضاة بالمحاكم

وبمناسبة تشكيل المحاكم نقول أنه الى حكم اسماعيل لم ينل قبطى رتبة الباشوية الا أن الخديوى اسماعيل هو الذى أشار بدخول الاقباط قضاة بالمحاكم الاهلية التى تشكلت عقب تشكيل المحاكم المختلطة (بمسعى المغفور له نخرى باشا الذى كان إذ ذاك

ناظرا للحقانية وله الفخر الاعظم فى اتمام تشكيلها وحسن نظامها مما خلد له ذكرا جميلا بالبلاد) وكان المتبع فى المجالس التى حلت محلها المحاكم الاهلية أن يكون قضاتها وكتابها وسائر خدمتها قاصرة على المسلمين فخالف هذه القاعدة المغفور له الخديوى اسماعيل وأمر أن تكون المحاكم الاهلية ممثلة لعنصرى الأمة أعنى الاقباط والمسلمين فادخل فى وظائف القضاة والكتاب وسائر ما يتعلق بها الاقباط ، كما يرى الان فى نظام المحاكم المذكورة وأتذكر أن أول قاض قبطى هو المرحوم عبد الملاك بك (كتكوت) الذى عين بمحكمة قنا الأهلية كما حدث فى عهده تعيين حكام من الأقباط حيث عين جدى المرحوم يوسف بك عبد الشهيد مديرا لديوان القضايا بمديرية المنيا . وتلك الوظيفة كانت عبارة عن وظيفة نائب عمومى يقوم باجراء التحقيقات فى القضايا ويصدر أحكاما أولية يتقدم بها للمجالس لتصدر أحكامها نهائيا ، وكان الغرض من تعيينه بهذه الوظيفة تعيينه مديرا للمنيا — وعين أيضا المرحوم سرور بك القبطى وكيلا لمديرية الدقهلية ، وهذه حسنة من حسناته أوجبت تعلق الاقباط به تعلقا شديدا يكاد أن يكون فى حكم العبادة ، وكان ذلك بمثابة رمز عظيم لاتحاد الأمة . ومحو الفوارق والقضاء على التعصبات المذهبية مما جعل سائر سكان البلاد كعائلة واحدة تشترك بالتضامن فى مصالحها جميعاً .

عطية اسماعيل باشا صديق المفتش

وفى عهد اسماعيل رحمه الله كان له وزير من وزرائه المقربين اليه هو المرحوم اسماعيل صديق باشا فكان الوزير بمثابة الوكيل المطلق عن الحضرة الخديوية ، نافذ الأمر فى كل شىء ، حتى بلغ صيته عنان السماء . وكان رجلا وديعا لطيفا ، وإنما كان ينسب اليه خطأ فرض الضرائب على الأهالى مما أثقل عاتقهم ولم يكن بينه وبين الحضرة الخديوية كلفة مما يستدل منه أنه لم يكن وزيرا فقط ، بل كان صديقا حميما لسمو الخديوى العظيم .

هذا الوزير عاش عيشة الترف التى تقرب من عيشة الخديوى إن لم تكن تماثلها وشيد جملة سرايات باق من آثارها سراى وزارة الداخلية وسراى وزارة المالية ووزارة الحقانية وسراى مجلس الوزراء وملحقاتها وكل هذه المبانى كانت عبارة عن

سراى واحدة . وكان يملك من الجوارى البيض الحسان أكثر من مائة حورية . وكان فى خدمته وخدمة حرمه خدم لايحصى عددهم من الاغوات والعبيد والمماليك وخلافهم : ظل هذا الوزير فى هذه المعيشة الهنيئة وتلك العلاقة الودية بسمو الجناب الخديوى زمنا طويلا ، الى أن عجزت الحكومة عن دفع أقساط الدين لدولتى فرنسا وانجلترا الذى استدانته منهما ، مما أدى الى قلق هاتين الدولتين فاتفقتا فيما بينهما على تشكيل لجنة تحقيق تاتى لمصر وتبحث مواردها وتفحص ميزانيتها لترى إذا كان يمكن التوفيق فى سداد أقساط الدين مع حفظ مايكفى لادارة شئون الحكومة وتصريف أمورها وفعلا تشكلت تلك اللجنة من فرنسى وانجليزى وحضرت الى مصر لهذه الغاية .

فقلق سمو الخديوى من ذلك وسأل اسماعيل صديق باشا الذى كان وقتها ناظرا للمالية عما يفعله مع هذه اللجنة ، فكان جواب اسماعيل باشا « ماذا أعمل ياموﻻى إلا أن أقدم لاعضائها الدفاتر والاوراق ليفحصوها ويقولوا مايقولون ؟ » ، فلم يسترح الخديوى لهذا الجواب بل زاده قلقا . لأنه كان يود أن يجيبه أنه قبل وصول اللجنة لمصر أكون قد أحرقت الاوراق والدفاتر وكل مايتعلق بها . فلا تجد شيئا .

ولما كان اسماعيل باشا المفتش خزانة الاسرار الخديوية وكان الخديوى فى ذلك الوقت مضطرب الافكار فخشى أن يبوح اسماعيل باشا المفتش بشىء من تلك الاسرار . يوجد متاعب للخديوى فأراد التخلص منه . وعاونه على ذلك بعض الكارهين له . ولما كان أسماعيل باشا المفتش قد احتجب عن مقابلة الخديوى أياما فسأل عنه . فقيل له أنه مريض ، وملازم الفراش فقال ولماذا لم تخبرونى ، وأمر باستحضار عربته وتوجه لزيارته فى بيته ، فوجده طريح الفراش يشكو من الحمى بدرجة ٤٠ فقال له هيا بنا نتريض بالجزيرة حتى تزول عنك عوارض الحمى . فقال له كيف يمكننى مفارقة الفراش والحمى تفترسنى فالح عليه ودعا الخدم لالباسه ملابسه واجره بطريقة لطيفة حتى انزلة معه وأركبه عربته وتوجه الى الجزيرة . وظل يداعبه أثناء الطريق . وعند وصوله للجزيرة قال له هل تسمح لى ياسماعيل باشا أن ازور الحرم خمسة دقائق وتنتظرنى فى السلاملك . فقال نعم ياموﻻى . وحينئذ نزل ازاء السلاملك وكان ينتظره هناك البرنس حسين والبرنس حسن ومصطفى فهمى باشا الذى كان إذ ذاك محافظا لمدينة القاهرة وبمجرد وصول اسماعيل صديق باشا لسلاملك السراى اعتقل وانزل بوابور « طير سعد » الذى كان معدا لهذا الغرض ومنتظرا بجوار

السراى وسافر به فى حراسة قوة عسكرية على رأسها ضابط جركسى من ياوران السراى يدعى اسحق بك متجهين به الى اسوان ، وساروا به الى الشلال وهناك اركبوه جملا سار به الى دنقلا ، وعند وصوله دنقلا ادخلوه السجن وقضى عليه خنقا داخل السجن وفى اثناء خنقه تمكن من عض اصبع اسحق بك احد الخانقين له فقطعه وكل ماقيل عن وفاته فى كوبرى قصر النيل وخلافه لا حقيقة له بالمرة . . !

عود على بدء

أما الان فنعود لمن تولى مرافقة اللجنة الخاصة بالتحقيق فقد اتجهت الانظار الى تعيين المرحوم رياض باشا وكان من اكبر الناقدين للاسراف الذى اوجب اضمحلال البلاد وتأخرها فكشف امام اللجنة اسرارا كثيرة ولم يترك كبيرة ولا صغيرة الا ذكرها وقد ترتب على نتيجة تحقيق هذه اللجنة ان وضعت انظمة حكيمة لايرادات ومصروفات الدولة ، ولدفع اقساط الديون لأربابها ولتنفيذ ذلك الغرض شكلت اول وزارة مختلطة بمصر كان يرأسها نوبار باشا وكان وزيرا للداخلية فيها رياض باشا وللمعارف على مبارك باشا ، وعين لوزارة المالية وزير انجليزى اسمه ريفرس ولسن ووزير فرنسى للاشغال العمومية اسمه ديلنير

سارت هذه الوزارة فى طريقها بنجاح عظيم ، ولكنها قيدت حرية الخديوى وكان للجيش متأخر مرتبات لم يستطيعوا صرفها فشكوا للحضرة الخديوية ذلك فقال لهم هذا عمل يخص الوزارة فهجم الجيش على الوزارة ، وحصل التطاول منه ضربا وشتما على نوبار باشا رئيس مجلس النظار وعلى مستر ريفرس ولسن وزير المالية الانجليزى ، فانتهز الخديوى هذه الفرصة وقال أن النظارة التى تهان هكذا لايصح بقاؤها فى الحكم وامر باسقاطها ، فتألفت وزارة وطنية برياسة راغب باشا وكانت نتيجة ذلك أن نوبار وولسن وديلنير سافروا لاوربا وعرضوا الحالة للدولتين

تعقد الامور

فترتب على ذلك اجماعهما على ضرورة تنازل الخديوى عن عرشه ضمانا للمصلحة العامة ولاستمرار بقاء العرش فى انجاله ، فأجابهما بأنه ليس تابعاً لهما حتى يفصلان فى

أمره انما هو تابع للباب العالى ، ولا يتلقى أمرا من سواه ، فاتجهت أنظار الدولتين الى مخابرة السلطنة العثمانية التى لم تتأخر لحظة فى إصدار أمرها بعزل الخديوى وتولية أكبر أنجاله البرنس توفيق ، وأن يتوجه سمو الخديوى اسماعيل مباشرة بعد ترك مركزه الى استانبول . فأراد الخديوى بادىء بدء أن لا ينفذ هذه الارادة ، فنصحه المرحوم شريف باشا بأنه لأجل خير عائلته يجب أن يقبل تنفيذ هذه الارادة حيث أنه غير مستعد بجيش يقاتل جيش الدولة العلية إذا أراد اخراجه بالقوة ، زلا قوة بحرية عنده تعادل قوتها ويخشى أن يكون هذا العمل موجباً للقضاء على تولية أى شخص من عائلة محمد على عرش مصر ، فسمع النصيحة ونفذ الامر من حيث تنازله عن العرش واستعد للسفر ولكن بدلا عن اجابة أمر السلطان بالتوجه الى استنبول قام مباشرة الى ايطاليا وسكن فى مدينة نابلى — هذا ما كان من نتيجة هذه الحادثة .

الخديوى اسماعيل فى الخارج

وكان سمو الخديوى اسماعيل عند رحيله من مصر قد أخذ معه أموالا طائلة وعقد النية على أن يبذل المساعى الممكنة والغير ممكنة لدى فرنسا وانجلترا والدولة العلية حتى يعود الى عرشه بمصر ثانية ، فصرف فى هذا السبيل أموالا طائلة لاتحصى وكاد أن يصل الى غرضه ولكن خانه الحظ فى آخر وقت حيث قامت عراقيل دون الوصول الى الغاية المطلوبة . ولما كان الباب العالى حانقاً عليه بسبب مخالفته أوامره وذهابه الى ايطاليا بدلا عن استانبول فقد بذل الخديوى اسماعيل مجهوده لاصلاح ذات البين بينه وبين الباب العالى — وبذل مساعى كثيرة يتطلب بها السماح له بدخول استانبول وعرض اخلاصه لجلالة السلطان فاستعملت تركيا خداعها المعروف فى اخلاق بعض رجالها ، وتظاهرت له بالرضاء التام وصرحت له بما اراد ، ففرح بذلك سمو الخديوى فرحا شديدا واعتقد أن أكبر العقد قد حلت وأنه بمجرد دخوله استانبول سينال بغيته فذهب على الفور اليها وفعلا سمح له بمقابلة جلالة السلطان ، فقابله أحسن مقابلة ، وكان فى وقت مقابلة جلالته موجوداً أيضاً البرنس حليم فى حضرته ، ومعلوم أن الكراهة المتبادلة بين البرنس حليم والخديوى اسماعيل كانت

قد وصلت الى أقصاها ، فأمرهما السلطان بمصالحة بعضهما بعضا فزاد بذلك اطمئنان الخديوى اسماعيل ، وبعد انصرافهما من الحضرة السلطانية وتوجه كل منهما الى سرايه صدرت أوامر من الحكومة السلطانية بأن سمو الخديوى اسماعيل ليس مصرحا له بالخروج من سرايه فأصبح كسجين فيها لايتمتع بحرية الحياة ، وعض أصابعه وندم على مافرط منه من عودته الى استانبول بعد أن كان طليقا يجول فى مدن أوروبا ، طولا وعرضاً فظل هناك زمناً طويلا حتى مرض المرض الأخير ، فسعى بأن يسمح له بالعودة الى مصر ليموت ويدفن فيها فقبلت السلطنة ذلك الالتماس حيث تحققت من نهاية حياته وسمح اللورد كرومر بذلك وكذلك الخديوى عباس مبدئيا فى ذلك الوقت ، ولكن رجلا من رجال السراى الخديوية يعد غرس نعمة الخديوى اسماعيل قام معارضاً لهذه الفكرة ، وأظهر للخديوى عباس أنه اذا عاد الخديوى اسماعيل وهو حى لمصر فسينازعه العرش فداخلته الريب من ذلك وتردد كثيرا فى الامر وأخيرا رفض بتاتا السماح له بالعودة الى مصر . ذلك الموظف الذى أثار هذه الفتنة نظير النعم التى غمره بها اسماعيل هو محمود شكرى باشا الذى كان رئيس ديوان السراى الزكى ولم تمض على هذه الحادثة خمسة أيام حتى نشرت الصحف نعى الخديوى اسماعيل باشا باستنبول ، فأحضر جثمانه الى مصر باحتفال لائق بقدره يتفق مع مقامه ومشى فى جنازته الخديوى عباس وجميع افراد العائلة الخديوية وقناصل الدول وسائر الحكام وأعيان وأهالى البلاد الى أن واروه التراب فى جامع الرفاعى الذى كان قد انشأ لهذا الغرض رحمه الله رحمة واسعة .

أطماع اسماعيل العظيمة

وكان من مطامع الخديوى اسماعيل ، ومن أماله الكبرى أن يصبح يوما امبراطورا على افريقيا ، وفعلا وصل بسعيه الى أن نال وعداً من نابليون بونابرت الثالث امبراطور فرنسا ، ومن جلالة السلطان عبد العزيز تحت شرط أن يكون تحت نفوذه السودان بأكمله ومملكة الحبشة فسعى وجد الى أن استحوذ على السودان وملحقاته مثل سنار وهرر وخلافهما وكان العضد الاول للحكومة المصرية فى استيلائها على السودان هو الزبير وحاكم السودان العام عبد القادر باشا حلمى وكان الزبير رجلا

هما ما شجاعا مقداما ذا نفوذ كبير جدا فى بحر الغزال ، وبعد أن أتم جهـــاده ، فى الاستيلاء على كل ماطلب منه من ضم أراضى السودان واخضاعها لسلطة الحكومة المصرية وشا فى حقه الوشاة من حكام مصر للجناب الخديوى حسدا منهم له فوصلت بهم النميمة الى أن أدخلوا فى ذهن الخديوى أن هذا الرجل يخشى منه أن ينادى باسمه خديويا على السودان والخلاص منه واجب . فدبر الخديوى حيلة لنفاذ هذا الغرض — وتلك الحيلة هى أنه أنعم عليه برتبة الباشوية وأوعز الى بعض حكام السودان المصريين أن يقولوا له أنه من التقاليد المرعية أنه عندما ينعم على عظيم من العظماء بمثل هذه الرتبة الرفيعة ، يجب عليه أن يلتمس مقابلة سمو الخديوى لتقديم التشكرات لذاته الفخيمة ، ولما كان الزبير حسن النية وعاملا مخلصاً لخدمة مصر ولا يداخله أدنى شك فى حسن نيتها حيال ماقام به من الخدمات — فقد جازت عليه الحيلة ، وطلب الاذن من الخديوى بحضوره لمصر فاذن له فى الحال فحضر فورا واستحضر معه هدايا عديدة من جوارى وأغوات وريش نعام وسن فيل — واحضر كميات كبيرة منها للخديوى

بين الزبير وسلطان باشا

وتصادف وقت مروره بالسكة الحديدية لمصر أن كنت أنا برفقة المرحوم سلطان باشا بمحطة مغاغة ولما كان اسم الزبير وأعماله معلومة لسلطان باشا واسم المرحوم سلطان باشا معروف بشهرته لدى الزبير باشا فقد تقابلا وتعانقا وأظهر كل منهما للآخر محبة واخلاصاً فمر على سلطان باشا أن يكتم عن الزبير مايشويه له الخا ، فقال له كيف دخلت عليك الحيلة وأنت رجل ذكى كثير التجـــارب وتركت بلادك و تيت لمصر ؟ — فقال الزبير ما أتيت لمصر للاقامة فيها ولكنى أتيت لتأدية واجب للخديوى وأعود فى الحال فقال له المرحوم سلطان باشا أرجو الله أن يحقق لك ظنك ولكنى أخشى أن تطول اقامتك فى مصر ، وحينذاك حان موعد سفر القطار ، فسافر بعد أن تصافحا طويلا ..

داخلت أفكار الزبير الهواجس والوساوس من عبارة المرحوم سلطان باشا ولكنه كان يرجح دواما أنه يتغلب عليها معتمدا على ماقام به من الخدمات ، ولكنه بمجرد وصوله الى مصر . وأن كان قد قوبل مقابلة فاتح عظيم وقبلت منه الهدايا التى

قدمها للسراى وللوزراء ، الا أنه صدرت الاوامر ببقائه بمصر وعدم عودته للسودان وظل محجوزا بمصر فى مدة اسماعيل وفى مدة توفيق وماعاد الى السودان الا عنـــد قيام اللورد كتشنر بالحملة التى قادها لاسترجاع السودان أثناء فتنة المهدى وكان من رجاله العاملين العظام ، وكان ذلك فى عهـــد سمو الخديوى عباس — وكان الرجل قد تقدم فى السن .

المغفور له محمد سلطان باشا
حاكم الصعيد العام

وفى ذات الوقت الذى كان الخديوى اسماعيل مشغولا فيه بالاستيلاء على السودان بواسطة حملة مصرية عسكرية تحت اشراف عبد القادر حلمى باشا حاكم السودان العام وقتها يعاونه الزبير ، كان أيضا مهتما بمحاربة الحبشة بواسطة حملة عسكرية كبرى يرأسها البرنس حسن الذى كان إذ ذاك وزيراً للحربية ، ولكن خانه الحظ حيث هزمت الحبشة الجيش المصرى وأخذته أسيرا حرب وقد بذلت جهود كثيرة لنجاة البرنس حسن وعودته سالما لمصر .

ومن بعد هذه الحادثة أخذ نجم الخديوى اسماعيل فى الأفول حيث مات السلطان عبد العزيز الذى كان أكبر عضد له كما أنه أسر الامبراطور نابليون فى الحرب التى قامت بين فرنسا والمانيا فى ذلك العهد المعروفة بالحرب السبعينيـــة ، وكان الركن الأعظم لتعضيد اسماعيل ، فضاعت جميع آماله من تلك الوجهة .

من نوادر اسماعيل

وكانت لاسماعيل نوادر كثيرة طلية — أعرف أنه يوماً من الأيام دخل عليه مفتش من مفتشى مزارعه وكان اسمه عكوش باشا وقال له ياأفندينـــا إنى وجدت

كنزا ثمينا لايفنى للبلاد ، أعرض تفصيلاته على مسامعكم الكريمة . ذلك الكنز هو زرع ستين ألف فدان ملك الدايرة السنية بالفيوم أشجار زيتون يمكن أن يستخرج منها مقادير لاتحصى من الزيت كى أمون منها جميع الالات والماكينات الداخلة فى دايرة القطر المصرى ، وكذلك السكك الحديدية المصرية بأجمعها ، بل يمكن تصدير مقادير منها لأوروبا فتأتينا بربح طائل . ولما كانت الفابريقات التى تلزم لعصيره يستغرق استحضارها وتركيبها وإعدادها للادارة زمناً طويلا فارجو من سموكم صدور الأمر من الان باستحضارها حتى فى هذه الفترة تكون قد نضجت أشجار الزيتون وأخذنا ثمارها وإلا نتأخر فى عصيرها ...

فسر بهذا الخبر سمو الخديوى سروراً عظيما واستدعى فى الحال المرحوم سلطان باشا الذى كان إذ ذاك حاكما عاما للصعيد ، وأمره بعد أن قص عليه الرواية أن يعمل مايلزم لاستحضار آلات هذه الفابريقات حالا من أوروبا ، فضحك المرحوم سلطان باشا وقال : يامولاى لم يغرب عن شريف علمكم أن عكوش باشا رجل مشهور بالكذب ، فاذا اعتمدنا على مثل هذه الاقاويل الكاذبة وهى محققة من الان ، وبرهانا على ذلك استحضار الالات قبل زراعة الزيتون الذى لانعرف إذا كان ينجح أم لاينجح ، فنكون قد تحملنا مصاريف جسيمة جدا باستحضار تلك الالات الغير مضمونة فائدتها فلننتظر حتى يزرع الزيتون وينمو ونرى ثمره وحينئذ اك نحكم اذا كانت الحالة تستدعى احضار تلك الالات أم لا ، فأجابه الخديوى بما يأتى : —

— اسمع ياسلطان باشا أنا أعرف أن عكوش باشا كذاب ، ولكن كذبه يبسطنى وأعرف أنك أنت صادق ولكن صدقك يضايقنى . فاذهب واطلب الالات وانته ، فذهب سلطان باشا وهو ممتلىء استغرابا وفعلا طلب فابريقتين لعصير الزيت وتم تركيبهما بالفيوم ولم تستخدما فى استخراج الزيت لغاية الان ..

مقلص « الافاك » !

ومن نوادر الخديوى اسماعيل أيضا أنه كان حريصا جدا على عرشه فعلم يوما من الايام أن رجلا باحدى بلاد مديرية جرجا يدعى « جعلص » أدعى الولاية

وأخذ ينادى بأنه سيكون « خديوياً » فالتف حوله بعض الرعاع ، فما بلغ خبره لمسامع الخديوى حتى أمر بشنقه فى وسط البلد حالا ، وتوزيع أهالى البلد التى ظهر منها هذا الشرير على البلاد المجاورة وهدم البلد وحرثها لتكون أراضى زراعية حتى لايكون لها أثر فى الوجود بعد أن ظهر منها هذا الشرير

وكان له تطورات غريبة ، فكان مثلا يرفع رجلا من الدرك الاسفل الى أعلى الدرجات ويوليه أكبر المناصب بينما كان يسقط أعظم رأس فى البلد من أعلى الدرجات إلى أسفل السافلين ، مثال ذلك أنه أمر بتعيين شاهين باشا الذى كان وزيراً للحربية والبحرية مأمورا « لتشهيل » سكة حديد السودان ، وسلطان باشا مفتشا بالفيوم بعد أن كان حاكم الصعيد العام ، ورؤوف باشا بعد أن كان حاكم السودان العام أصبح مديرا لجرجا ، وأعرف مرة أنه عين المرحوم على باشا مبارك ناظر الأشغال وأسند اليه نظارة المعارف العمومية ومحافظة مصر وإدارة السكك الحديدية وبعد ذلك بأشهر قليلة سلب منه كل هذه المصالح وجعله باشمهندسا للركاب العالى فقط !!

وكان الخديوى اسماعيل حركة لاتهمد على الدوام يهتم بتصريف أمور الحكومة بنفسه ، كثير النشاط ميالا للمسرات حلو الحديث يحب العلماء المستنيرين ، وكان متخذا منهم عالمين فاضلين وهما المغفور لهما الشيخ على الليثى والسيد على أبو النصر ، بصفة نديمين يلتذ لسماع حديثهما ويسر لنكاتهما ، والاستماع لنوادرهما الطريفة .

كما كان يجمع بين الصفات الباريسيه وجميل الشمائل العربية ، محبوبا من الأمة المصرية مع أنها كانت تخشاه وتهابه وتخاف سلطته ، وكانت فى عهده فى هناء وسرور

الانظمة السائدة فى عهده

وكان يوجد فى عهده كثير من الانظمة القديمة التى خلفها الولاة السابقون منها أنه كان يوجد فى كل مديرية سنجق ، على رأس ستماية عسكرى « باشبوزك » ، خليط من جميع الاجناس ، وكانوا يعيثون فى الارض فسادا ، وربما كان وجودهم من أكبر العلل لاختلال الامن العام كما أنه كان يوجد عدد كبير من العربان المنتشرين بالجبال والسواحل يسكنون الخيش والنجوع . وكان أكثرهم يعيش من

احتراف السرقة . فأراد الخديوى اسماعيل أن يتخلص من كل هؤلاء فأمر حكام الجهات أن يوعزوا الى الفريقين بأن الحكومة ستغزو السودان وأنه سيوكل اليهم بهذا الأمر — أى للسناجق وجنودهم والعربان وجماعاتهم . وكان ذلك فى الوقت الذى وجه فيه الخديوى جهده للاستيلاء على السودان , وضمه الى مصر ، ففرحوا بذلك كثيرا وسرعان ما تهيأوا للسفر ، وصرفت لهم الحكومة مالزم لرحيلهم ولقضاء مصالحهم . فسافروا جميعاً للسودان ، الا أن العرب احتاطوا للامر بأن أبقوا منهم جانباً كبيرا هنا ليكون كأمدادات لمن دخل الحرب ، وعند وصولهم للسودان واندماجهم فى الحرب صدرت أوامر حاكم السودان العام وكان إذ ذاك عبد القادر باشا حلمى . بعدم السماح لأى احد منهم بالعودة الى مصر إذا سلم من الحرب وبهذه الوسيلة قد تطهرت البلاد من وجودهم واستراح العباد من شرورهم .

أقباط المنيا والمبشرون الامريكان

ومن المسائل ذات الأهمية الكبرى التى حدثت مدة الخديوى اسماعيل . أنه ظهر مبشرون من الامريكان . كانوا يطوفون بالبلاد لتبشير الاقباط بالمذهب البروتستانتى فأمكنهم أن يستميلوا اليهم فى مدينة أسيوط عائلتين هما عائلة ويصا وعائلة خياط ، وهاتان العائلتان هما أول من خرج من المذهب القبطى الارثوذكسى الى المذهب البروتستانتى .

وبعد ذلك حضر المبشرون الامريكان الى بندر المنيا . وكان أقباط المنيا وقتها يتبعون نصيحة جدى المرحوم يوسف بك عبد الشهيد فى كل أمر . فنصحهم بأن لايحضروا أى اجتماع يدعون اليه من هؤلاء المبشرين . فقبل أقباط المنيا نصيحته . ولذلك غضب المبشرون وعلى رأسهم الدكتور هوج ، ورفعوا شكواهم لقنصل عام أمريكا بمصر ضد المرحوم جدى . وقد بلغها هذا القنصل لنظارة الخارجية التى بلغتها لنظارة الداخلية ، وهذه اشرت عليها بالتحويل لمديرية المنيا لعمل تحقيق عن ذلك فاطلع المدير وقتها المرحوم جدى على هذه الشكوى . فطلب بنفسه من سعادة المدير

أن يستجوبه كتابة . فأجابه الى طلبه . ووجه اليه سؤالا يطلب منه فيه تصريحا عما حصل فى هذا الأمر الذى يشكو منه المبشرون الامريكان فاجابه قائلا — الأمر بسيط جدا هؤلاء المبشرون حضروا لبلادنا يطلبون منا أن نخرج من ديننا فرفضنا ذلك . إنهم يشكون من بقائنا على مذهبنا . فاذا كانت الحكومة تود أن تساعد هؤلاء الأجانب على خروجنا من مذهبنا واتباع مذهبهم فلتقل لنا ذلك بصراحة ونحن نفكر فى الأمر .. ؟؟

فلما بلغ الجنات الخديوى اجابه المرحوم جدى بهذا القول . سر سرورا عظيما منه . واستدعاه وشكره وأنعم عليه بنيشان رفيع فى وقتها لان الخديوى كان فى حالة غضب شديد من تصرفات المبشرين بالبلاد المصرية وكان يزداد كدرا عندما يسمع بأى قبطى خرج من مذهبه وتمذهب بمذهب الاجانب . ولذلك ولكى يقضى على هذه الحركة . استحسن ان يقوم غبطة البطريرك وقتها المدعو الانبا يمتريوس بسياحة وأن يكون تحت أمره وابور من الركايب الخديوية . ويطوف ببلاد الصعيد . ويكون المديرون وحكام الصعيد فى خدمته . وتحت أوامره . فطاف البطريرك بهذة العظمة والابهة التى لا نظير لها بعموم بلاد الصعيد . فكان فى طوافه هذا بهذا المظهر . وما قدم له من التبجيل والتكريم . القضاء المبرم على تلك الحركة التى كان يراد منها تتبع الاقباط لكنيسة أجنبية — وبمعنى أوضح خروجهم من الرعوية المصرية الى الرعوية الامريكانية — والفضل كل الفضل فى ذلك يعود للخديوى اسماعيل وبعد نظرة مما يحفظ له الذكر الذى لايمحى مقرونا بالحمد والثناء .

الجمعية الخيرية القبطية

ومن المسائل الهامة التى حصلت فى عهده . قيام فريق من الاقباط الذين اتصفت أخلاقهم بالميل الى خدمة الانسانية بتأسيس جمعية خيرية . لتخفيف ويلات الفقير . واعانة المسكين وتربية اليتيم وهم حضرات :

مرقس بك مفتاح رئيساً وبرسوم افندى حنين وغطاس افندى حنا وجرجس

افندى بقطر وجرجس افندى عصفور ويعقوب بك نخلة وتادرس افندى حنا الجزاوى وبطرس افندى أبادير والخواجا رزق لوريا وحبشى بك مفتاح أعضاء.

وجميعهم توفوا وليس باقيا منهم على قيد الحياة الا حضرة حبشى بك مفتاح.

وكان هذا الفريق برئاسة المرحوم مرقس بك مفتاح. الذى كان بحق رجل الاصلاح وخادم الانسانية. فقام بتأسيس الجمعية المذكورة بمقتضى محضر فى سنة ١٨١٨ وهذا المحضر محفوظ تحت يد حضرة حبشى بك مفتاح شقيق مؤسس الجمعية

وهذه الجمعية هى القائمة الان برئاسة صاحب السعادة جرجس باشا انطون. وقد أدت كثيرا من الاعمال فى تخفيف ويلات الانسانية. ونشر التعليم. ومن أعمالها الباهرة أنها أسست المستشفى القبطى.

من نوادر الحكام ..!

فى عهد الخديوى اسماعيل

أتذكر أنه فى عهد الخديوى اسماعيل كان يوجد مدير اسمه داود باشا. ظل مديراً لمديرية قنا زمنا طويلا. وكانت هذه المديرية إذ ذاك ممتلئة بالاشرار وقطاع الطرق وسفاكى الدماء. بحيث كان لا يمكن لأى انسان أن يسير فى طريق ما سواء أكان ليلا أم نهارا. ويكون آمنا على حياته. وكان اهتمام ذلك المدير منصرفا الى تطهير المديريه من الجرائم. وكان يعتقد أيضا. أنه اذا اعتمد على أحكام المحاكم وتحقيق النيابات. لايصل الى نتيجة فعالة. لانه كان يقول أنه مهما قيل فى حق جان من الجناة للنيابة أو للمحكمة. فما أسهل على النيابة أو المحكمة من أن تقول — الأدلة غير متوفرة وتحكم البراءة .. !

ثبت فى ذهنه هذا — ورغب رغبة أكيدة فى تطهير المديرية فسن طريقة حديثة أتبعها وذلك بأن القاتل اذا ثبت لديه أنه قاتل فعلا. ووجد من الأدلة ما يقنعه بذلك أمر بقتله فى السجن خنقا وبعد الوفاة يأمر حكيمباشى المديرية بأن يصدر شهادة بأنه مات بالحمى التيفودية وأظن أن أحد الاطباء توقف مرة عن ذلك فضربه وأرغمه على توقيع الشهادة فوقعها.

وكان أيضا إذا ثبت لديه أن رجلا فضح عرضا أو نهب بيتا. ولم يقض على حياة انسان فى أثناء ارتكاب جريمته هذه، فيكتفى بأن يفقده بصره جزاء عمله

ترتب على هذا أنه لم تمض مدة طويلة من الزمن حتى تطهرت المديرية تماماً. وأصبحت المرأة وهى متحلية بجميع حلاها. تسير فى جميع الطرق ليلا ونهاراً بدون أن يعترض طريقها انسان. حتى أصبحت مضرب الأمثال.

وكان يميل الى العدل كثيراً مهما كلفه ذلك. وأتذكر أن امرأة حضرت اليه يوما بالمديرية وقالت له بنص اللفظ — العمدة نهب جاموستى ياداود وأنت فى المديرية فهل يرضيك ذلك؟ فقال لها لا. ستأخذين جاموستك إذا كان كلامك صحيحاً. وقد كانت اجريت له عملية بواسير فى ذلك اليوم وكان لايصح أن يركب ماشية لهذا السبب ورغم تنبيه الحكماء بما يعود عليه من الضرر إذا ركب. قال. أنه لايهدأ له بال. ولا يستريح له فكر. إلا إذا ردت الجاموسة لصاحبتها — داود موجود وتسرق جاموسة امرأة بواسطة عمدة بلد؟ هذا كثير — !!

وطلب فى الحال بغلة كان قد اعتاد أن يركبها وأمر المرأة أن تركب دابتها وتذهب بمعيته. وقام ركبه قاصداً الناحية التى تقطنها تلك المرأة. واستحضر العمدة وثبت له من سؤاله إياه. أنه نهب الجاموسة حقيقة. فاستردها منه وسلمها لصاحبتها. وأرغمه على دفع خمسة جنيهات تعويضا للمرأة. وبعد ذلك جلده تأديباً لما اقترفه ورجع فخورا مسرورا بعمله. وكانت له قصص كثيرة من هذا القبيل. ذكرنا منها هذه القصة على سبيل التمثيل.

من مديرية لمديرية

وبعد أن تطهرت المديرية نقل الى مديرية جرجا، فطهرها أيضا ثم نقل الى مديرية الجيزة. وكان فى ذلك الوقت أكبر اهتمام الحكام بالأقاليم منصرفا الى تحصيل الأموال الأميرية وسائر الضرائب. ومابق بعد ذلك من أعمال المديريات. كان ثانويا فى نظر الحكام. فعندما نقل لمديرية الجيزة. اهتم كثيرا بتحصيل الأموال. واتصل به أن جميع أهالى المديرية يدفعون عن طيب خاطر كل الضرائب المطلوبة ماعدا أحد كبار علماء الأزهر الذى كان يملك أرضاً بتلك المديرية ويسكن بالجيزة.

فهو الوحيد الذى كان لايدفع الأموال . فتراكمت عليه المتأخرات كثيراً فطلب المدير كشفاً بجميع المتأخر عليه . وأرسل رسولا يستدعيه . فرفض العالم التوجه للمدير وقال لاشغل لى عنده . فعندما حضر الرسول وأبلغ المدير ذلك قال . وهل رسول داود يصح أن يكلف بمأمورية ويرجع بدون قضائها ؟ نومه ياولد . وجلده جلدا مؤلماً وقال له اذهب واستحضره حالا بأية كيفية . فذهب الرسول الى العالم وفى يده كرباج وقال للعالم تفضل كلم المدير . فابتدأ العالم يعتذر . فضربه الرسول ضربا فما كان من العالم سوى أن خضع وامتثل وذهب صحبته المدير وكان ذلك العالم لابساً ملابس فاخرة من الجوخ والشاهى . فدخل على المدير وقال : السلام عليكم ورحمة الله ياسعادة المدير . وهم أن يجلس بجانبه ففى الحال صرخ المدير صرخة عالية وقال ياولد فدخل عليه اثنان من القواصين . وقال لهما خذا هذا الكلب (مشيرا الى الرجل) واطرحوه أرضا . فطرحوه أرضا ووضعوا فى رجليه فلقة سلسلتها حديد . وأمر بجلده بالكرابيج . فانهالت الكرابيج على أقدامه وهو يصرخ ويستغيث فقال له المدير لايكف عنك الضرب إلا اذا دفعت كل مطلوب الحكومة على آخر قرش . وفى الحال أسرع واستحضر من بيته كل مطلوب الحكومة . وما استطاع العالم بعد ذلك أن ينهض على رجليه لما حل به من الألم . فحملوه وأوصلوه الى بيته !

ذاع هذا الخبر حتى وصل لمسامع علماء الأزهر . فقاموا وقعدوا له . وتألف منهم وفد . وقصدوا سراى عابدين وتشرفوا بمقابلة الخديوى اسماعيل وقالوا له . يا أفندينا فى عصرك عصر النور والعلم . الذى عظمت فيه قدر القائمين به ورفعت شأن الأزهر الى عنان السماء . يضربون العلماء بالعدة والكرباج كسائر الفلاحين ؟ فقال لهم من فعل ذلك ؟ قالوا داود مدير الجيزة ياأفندينا فأمر فى الحال باستحضاره فذهب خيال عقب خيال لاستحضاره . والعلماء فى انتظار قدومه . واذا بداود باشا يحضر ثابت الجنان . بغير أدنى اضطراب بخلاف ما كان ينتظر . وسأله أفنديا . هل أنت ضربت العالم فلان ؟ قال نعم . قال وكيف تضرب عالما ؟ فقال . أفنديا نائب الخليفة فى الحكومة المصرية . وأنا نائب الخليفة فى مديريتى . وهذا العالم ثبت لى أنه شتم النبى . فلم يسعنى وأنا خليفة الخليفة الا تأديبه . فأمرت بجلده جلدا عظيما فما كان من العلماء الا أن قالوا من شتم النبى لا يكتفى تأديبه بالجلد . بل لابد من رجمه . فقال داود باشا ولكنى جلدته جلدا مؤلما . وأظن بعد العذاب الذى ذاقه

من يدى لايصح رجمه . حينئذاك قال أفنديناما دام ضربه ضربا مبرحا وليكتفى بذلك ثم انصرفوا معلنين شكرهم وارتياحهم لما فعله المدير كما أعلنوا امتنانهم وسرورهم من اهتمام ولى الأمر بمطلبهم

ولكن أفنديناوأن كان قد ارتاح للخلاص من هذه الورطة . إلا أنها لم تخل عليه ولذلك بعد أن انصرف وفد العلماء . سأل افنديناداود باشا ماهى الحقيقة ؟ فقال داود باشا ياأفنديناهذا الرجل بتوقفه عن دفع مال الحكومة يعطل على تحصيل أموال المديرية فبجلده حصلت جميع المطلوب منه ومن أهالى المديرية . فقال أفنديناعظيم وخليك هكذا وكل مرة « شتم النبى » وانتهت الرواية على ذلك .. !!

لطائف لبعض المديرين

اتذكر أنه عين مدير لبنى سويف أحد عمد البلاد . وكان اسمه جاربك . وكان المعتاد وقتها أن يفرض على البلاد تقديم جمال لمشال قصب الدائرة السنية (اعنى دائرة سمو الخديوى اسماعيل) لتوريده للفابريقات . فطلب من كل بلد عددا من الجمال . فقال أحد عمد البلاد للمدير - لقد طلبت منى مائة جمل وليس ببلدى ذيل واحد من جمل ! فقال المدير « وانا مالى » هات من تحت الارض جمال . فقال العمدة هل تحت الارض فيه جمال ؟ من عملك مدير ؟ فغضب المدير واستدعى قواصه التركى وقال له أرطن على هذا الرجل فقال له « سكتير كرته بزافن » فهرب الرجل وهرب المدير معه — لأنه ظن أنه لم يزل شيخ بلد كما كان فحصلت له رجة الى أن استفاق . وبعد ذلك أخذ العمدة يحفر فى الشارع الذى يمر به المدير ، فعندما مر المدير قال له ماذا تفعل فقال: اطلع جمال ، فقال وهل الجمال تحت الأرض، فقال له أنتم الذى قلتم ذلك

ومن ضمن نوادر هؤلاء القوم أن أحدهم عندما كانت ترد البوستة وتقدم اليه حسب العادة يفتحها وكان كلما رأى ملفاً تابعاً لخطاب يمسك الملف ويمزقه أربا أربا ويحتفظ بالخطاب فكان عندمايرى ذلك الباشكاتب يندب سوء حظه فيقول المدير له ، هذا عفش نفش مالوش لزوم ، ومن غير فائدة فكان يضطر الباشكاتب لأن

يأخذ سلة الأوراق الممزقة ويصرف وقته فى البحث عن قطع الاوراق الممزقة

الفشن راحت فين؟

وهناك نوادر كثيرة من هذا القبيل ولكن عهد هؤلاء الفلاحين لم يدم كثيراً

أما الحكام الاتراك فكانوا يعتمدون فى كل أعمالهم على الباشكتاب ولو أنه كان يقع منهم مثل هذه المضحكات أيضا حيث حدث عند فتح البوستة والنظر فى أى أمر يقول للباشكاتب — خد هذا الورق — هات كلام من عندك أعمل اللازم — ومن ضمن نوادر أحدهم الذى كان مديرا بالمنيا وهو محب بك والد محب باشا المعروف — والعادة القديمة فى عنوان مديرية المنيا هو — مديرية المنيا وبنى مزار — فعندما أراد الباشكاتب أن يعتمد منه أول خطاب لنظارة المالية قال له — يا باشكاتب أيه مكتوب فى الامضاء — قال الباشكاتب مدير المنيا وبنى مزار — فقال المدير وفين الفشن؟ فقال الباشكاتب هناك فى محلها فقال المدير أنا عارف شغلك يا باشكاتب أنت مسكت الفشن أعطيته لمدير بنى سويف أنا عارف شغلك — أنا لا أعتمد امرا مادام مفيش الفشن — فالباشكاتب لاجل انجاز العمل وعدم التعطيل اضطر لأن يضيف فى الامضاء « والفشن أيضا حسب أمره » . فعندما وصل هذا الخطاب بهذه الكيفية لنظارة المالية ، اندهش ناظرها وكان وقتها المرحوم اسماعيل صديق باشا واندهش أكثر منه المرحوم وشيه بك الجيزاوى باشمحاسبجى الدولة — فصدر أمر نظارة المالية تلغرافيا للباشكاتب بالحضور ولما حضر وسألوه ماهذا الخلط يا باشكاتب وأنت من أعظم الموظفين فقال ، وماذنبى؟ وقص عليهم الواقعة فضحك ناظر المالية ووهبه بك كثيراً . عندما سمعا هذه الرواية وأخيرا استدعيا المدير وأفهماه خطأه ونصحاه بأنه يتبع نصائح الباشكاتب لأنه يعرف الأصول المتبعة وأدرى بها فقال بك أفندم !!

وبعد أن خرج من النظارة تقابل مع الباشكاتب وقال له باشكاتب افندم . انت زعلان فقال ابدا ياسعادة المدير . انما الامضاء هى التى عملت كده .. !!

غيرة عمياء .. وشعور نبيل ! !

وفى زمن الخديوى اسماعيل كانت وظيفة الحاكم العام للصعيد تتبادل بين ثلاثة من ذوات مصر هم سلطان باشا وقاسم باشا وعمر لطفى باشا . وأتذكر أن عمر لطفى باشا حين تقلد هذه الوظيفة وقع فى غرام سيدة جميلة من بنى سويف وهى راقصة شهيرة تدعى المظ فشغف بحبها وكان وقتها يوجد فى عاصمة كل مديرية مأمور ضبطية ولما كان مأمور ضبطية بندر بنى سويف مبغوضا من أهل البلدة دبروا حيلة شيطانية لخلاصهم منه وكتبوا عريضة بأسماء مختلقة وقدموها لعمر لطفى باشا قالوا فيها : أن هذا الرجل واقع فى غرام السيدة المظ ودائما يترك أشغاله ويسهر معها . فعندما تلا الباشا هذه العريضة ملأه الغضب وحب الانتقام من شخص صغير ينازعه عشيقته فأرسل تلغرافاً فى الحال الى جناب الخديوى (اسماعيل) قال فيه : أننى علمت من مصدر سرى أن مأمور ضبطية بندر بنى سويف جاسوس للبرنس حليم ويتبادل معه المكاتبات وأن فى بقائه فى البلاد المصرية خطرا . ولما كان الخديوى لا يشك فى صحة أقوال حاكم عظيم يشغل أكبر الوظائف أصدر فى الحال أمره بارسال ذلك الموظف مكبلا بالحديد تحت الحراسة الى اللمان أعنى الى البحر الأبيض بالسودان والرجل مسكين . فقد كان بريئا من هذه التهمة وما يشعر الاوقوة عسكرية قبضت عليه فاندهش وكاد يجن وأودع السجن لترحيله . فلما علمت الست المظ بهذه الحكاية وكانت لا تعرف هذا الرجل حزنت لكونها كانت سببا فى خراب بيت عائلة بريئة وما كان أنبل شعورها اذ قامت وقابلت عمر باشا لطفى وقالت له ما سبب غضبك على مأمور ضبطية البندر حتى وصلت الحالة الى نفيه فاخفى عنها الحقيقة وقال لها هذا رجل جاسوس ضد الحكومة . فقالت له بجرأة يا باشا أنت غير صادق فى قولك وأنا عرفت السبب الحقيقى الذى دعاك لهذا العمل الشنيع المجرد من العدل والانصاف وأنا أؤكد أن ماوصلك من التهم ضد هذا المسكين كذب فى كذب وهو برىء منه وأنا ضميرى لا يحتمل خراب بيت هذا الرجل بسببى !

ولما كان الرجل صار ترحيله وعمر باشا كان ضعيف الاراده أمام معشوقته

لايحتمل دلالها فقالت له إما قطع العلاقات بيننا فلا أراك مادمت على قيد الحياة وإما عودة الرجل فى الحال ولما كان الباشا ليس فى استطاعته احتمال غضب معشوقته أرسل تلغرافا فى الحال الى الجناب الخديوى قال فيه . أنه ثبت من التحريات الدقيقة التى أجراها براءة الرجل مما عزى اليه ويلتمس من المراحم الخديوية العفو عنه والاذن بعودته لوظيفته . فصدرت الارادة السنية بالعفو عنه وعودته ولكن ليس بوظيفته بل يلزم بيته خارجا عن خدمة الحكومة مادامت قدحامت حوله هذه الشبهات . هذه نادرة من نوادر حكام العصر القديم والفضل فى خلاص هذا الرجل يعزى الى الاحساسات الشريفة التى أبدتها الست المظ رحمها الله رحمة واسعة ..

حاشية

أنبه القارىء الى أن المظ هذه ، هى راقصة كانت معروفة بجمالها فى ذلك العهد وليست المظ المغنية الشهيرة !!

معارضة سلطان باشا

فى ضريبة المقابلة

لما فرض الخديوى اسماعيل على الأهلين ضريبة « المقابلة » قال سموه لسلطان باشا ، أن هذه الضريبة فى مصلحة الأهلين ، لأنها تخفف عنهم فيما بعد ضريبة المال فأجابه سلطان باشا ، أما أنا يا أفندينا فأرى هذه الضريبة قضاء مبرما عليهم . فغضب الخديوى غضبا شديدا ، وأمر بنفيه الى السودان ولكن اسماعيل باشا المفتش توسط فى الأمر ، وعمل على أن يعفو عنه الخديوى . وقال لأبى سلطان أتريد اقامة الدين فى مالطه ؟ ويقصد بذلك أنه بموقفه هذا كمن يحاول أن يمسك الماء ، أو ينفخ فى رماد ؟؟ أذ لن يحقق غرضه بمعارضة الخديوى فى هذه الضريبة ، ولن ترفع عن الأهلين ، وكل مافى الأمر لن يعدو التضحية بحياته فيما لا يجدى نفعا؟ فقال سلطان باشا :

— لو أنى أقدم حياتى فداء وتضحية ، ويكون من ذلك خير لأمتى ، لقدمتها عن طيب خاطر ، وكنت بذلك الفائز .

وأخيرا أصدر الخديوى عفوا عنه ، وكلفه بتحصيل هذه الضريبة .

السرايات فى عهده

وقد بنى اسماعيل فى عهده جملة سرايات منها - سراى القبة ، وسراى عابدين ، وسراى الاسماعيلية وثلاث سرايات بالجيزة - وسراى الجزيرة - وقصر النزهة بشبرا وسراى المنيرة - وسراى المنيا

التنازل عن أطيان الدائرة السنية

ومن الامور التى جرت فى عهده أيضا ، أن عملت مساع بمعرفة المرحوم نوبار باشا رئيس الوزارة وقتها باقناع سموه أن يتنازل عن أملاك الدائرة السنية للحكومة ، والدائرة السنية هى عبارة عن وزارة زراعية كانت قائمة بادارة شئون أراضى الجناب الخديوى ، وكانت تنقسم الى تفاتيش وكل تفتيش منها لايقل زمامه عن ستين الف فدان إن لم يكن أكثر ، وتلك التفاتيش هى

أرمنت ، الضبعة ، المطاعنة ، الروضة ، أبو قرقاص ، المنيا ، معصرة سمالوط ، مطاى ، بنى مزار ، آبا ، الشيخ فضل ، مغاغه ، سلاقوس ، الفشن ، ببا ، الفيوم ، أورمان أبو بلح ، بسنديله ، طناح

وكل تفتيش من هذه التفاتيش عبارة عن مديرية ، وكان المفتشون القائمون بهذه الاعمال ، لهم السيطرة العليا على موظفى الحكومة ، ولهم النفوذ الذى لا حد له . وكان يتبع كل تفتيش من هذه التفاتيش ، فابريقة لعصير القصب وعمل السكر ، وربما كان يقرب ثمنها ومصاريفها لغاية ادارتها من المليون جنيه ، ما عدا تفاتيش أو رمان ابو بلح ، وبسنديله ، وطناح حيث كان لايزرع فيها قصب

فنجح نوبار باشا باقناع الخديوى ، فى ظروف اشتدت فيها الضائقة المالية ، وتعذر سداد الكوبون الخاص بديوان الدائرة ، أن يتنازل الخديوى عن هذه

الاملاك جميعها للحكومة ، التى أخذت على عاتقها أن تديرها بمعرفتها ، وإذا عجزت إيرادتها عن سداد ماهو مطلوب عليها ، تقوم الحكومة بسداد العجز ، فى نظير مايؤول ملكية هذه الاطيان ومايتبعها للحكومة وتتصرف فيها كيف تشاء كما أنه (أى نوبار باشا) نجح أيضا فى الحصول على تنازل أعضاء العائلة الخديوية عن أملاكهم المعروفة الان بالدومين ، للحكومة بذات الشروط ، وفى نظير ذلك خصصت لهم مرتبات يتقاضونها من الحكومة شهرياً

وقد انتهت مدة الدين الان الخاص بهذه الأملاك وسددت ماعليها من الديون وباعت الحكومة جميع أملاك الدائرة السنية للاهالى ، كما أنها باعت جانبا عظيما من أملاك الدومين أيضا ، بما زاد فى ثروة الاهالى ورفاهيتهم وتحسين حالتهم المعيشية

أما الفابريقات ، فقد بيعت بيع التراب حيث أن الفابريقة التى تكلفت ماينا هز مليون جنيه ، بيعت حديد خرده بما لايزيد عن عشرة آلاف جنيها ، ولم تبق من هذه الفابريقات سوى ثلاث ، هى أبو قرقاص والشيخ فضل وأرمنت وهى باقية لغاية الان وتابعة لشركة السكر

ذكرياتى عن اسماعيل خارج الملك

اتفق ذات يوم وأنا فى مدينة فيشى بفرنسا أن قابلنى درانيت باشا ودرانيت باشا هذا كان أجزجى باشا المغفور له الخديوى اسماعيل فقال لى ، أفندينا اسماعيل لاحظ وجودك هنا منذ يومين واستغرب عدم زيارتك لسموه فاجبته بما يأتى - إنى صغير جدا فى سنى ومركزى وليس لى أن أكون من زوار سموه ، فقال لى ولكن أفندينا يسر برؤيتك وهو الذى أمرنى باخبارك بذلك ، فطلبت منه موعداً للمقابلة فقال من الساعة الثانية الى الخامسة فاحضر فى الساعة التى تريدها ، والخديوى ساكن فى فيلا تسمى « فيلا روز » أعنى (قصر الورد) فسعيت فى اليوم التالى للحصول على طربوش البسه وذهبت فى الساعة الثانية تماما الى الدار التى يقطنها سموه وهى دار جميلة جدا فى وسط حديقة غناء وكنت أعرف أن أفندينا ذو لحية تركية وشوارب تتناسب معها على ماكنت شاهدته فى مصر ولو عن بعد ، فلما أتيت

الفيلا وجدت رجلا جالسا ببابها شواربه ممتدة ولحيته مسترسلة طويلة فدنوت منه وقلت له « أنا عندى موعد لمقابلة أفندينا فى هذه الساعة » فقال « تعالى معى وأنا أوديك عنده » ووضع يده فى يدى ودخلنا صالونا بالدار كان يوجد به نفائس من الرياش ومن بينها كنبة صغيرة لطيفة تسع شخصين فقط فجلس وأجلسنى بجواره وقال أمكث حتى يأتى أفندينا ، وبعد أن استرحنا قال بالعربية أنا مسرور برؤيتك ياقلينى بك ! فقلت له أشكرك ، هل حضرتك سكرتير أفندينا ؟ قال ، أنا هو افندينا ، فوقفت فى الحال وقلت استغفر الله ياافندينا ، فقال لى ، ما ألطف هذه المشاورة الصغيرة التى سرت قلبى . اجلس فاطعت الامر وجلست . ولكنه تولانى خجل عظيم من هذا العطف الكريم ، ثم بادرنى سموه معلنا غضبه على ماجرته الحركة العرابية وما ترتب عليها من خسارة البلاد ادبياً وسياسيا

وكان لطيفا معى فى كل حديثه بشوشا مطلعا كل الاطلاع على كل مايجرى بمصر من كبيرة وصغيرة وكان على الدوام يعلل الامال بعودتة الى مصر وفى ختام الحديث تفضل سموه فدعانى للغداء فى اليوم التالى فقبلت هذا العطف بالشكر والامتنان وقبلت يده الكريمة وانصرفت ...

عطف على عظماء أمته

ومن الحوادث التى جرت والمغفور له اسماعيل فى أوربا أن المرحوم سلطان باشا كان بأوربا يستشفى من مرضه وكنت أرافقه فى هذه السياحة فلما وصلنا الى فينا ونزلنا فى فندق يسمى جولدن اسلام كونتنتال ، علمنا منذ حلولنا بالفندق أن الخديوى اسماعيل نازل فيه وكان إذ ذاك قد اشتد المرض على المرحوم سلطان باشا فعاقه عن التماس الحظوة بمقابلة الخديوى . ولكن سموه مالبث أن استدعانى واستفهم منى عن صحة سلطان باشا فقلت لسموه إن المرض اشتد عليه ولكنه سيأخذ مسكنا من المورفين حتى يمكنه من التشرف بمقابلة سموكم لانه شغوف برؤيتكم . فقال لى مايأتى - أفهمه أن لايتعب خاطره ، وأنا ساحضر لمشاهدته لانى أحب الرجل كثيرا وقد خدمنى وخدم البلاد خدمات عظيمة ، فيسرنى أن أراه . وقل له . « إن الامتثال خير من الادب » !

فشكرت لسموه هذا العطف الكبير واستأذنته فى أن أبلغ الأمر لسلطان باشا وعندما دخلت على الباشا وأخبرته خبر هذة المحادثة فرح جدا وقال . هذا كثير وعطف كبير وانى أخجل كثيرا أن سمو الخديوى هو الذى يكلف خاطره ويأتينى فكررت عليه ما نطق به الخديو من أن الامتثال خير من الادب ، وفى أثناء ذلك لم نشعر الا وسمو الخديو دخل صالون المرحوم سلطان باشا فكانت مقابلة مؤثرة جدا وأخيرا قال سموه « أرجو الله أن تصل لمصر سالما وأن تأتينى اخبار تبشرنى بتقدم صحتك » ثم هم للانصراف وقال لى « اسهر ياقلينى بك الليل والنهار على صحة الباشا هذا الوطنى العظيم والخادم الامين للبلاد » فقبلت يد سموه وقلت سمعا وطاعة . ولكن سلطان باشا تأثر وبكى من هذه العواطف الجميلة .

الاخلاق العامة فى عهد اسماعيل

وفى عهد هذا الخديوى العظيم كانت أخلاق الشعب المصرى بخلاف أخلاقه اليوم ، فالأمانة كانت سائدة على الجميع والمعاملات يكتفى فيها بالكلام ، والصغير يحترم الكبير ، وكان للبيوتات العامرة هيبة ووقار ، وكانت الأمة من أقباط ومسلمين متضامنة تضامناً قومياً متيناً والفضل فى ذلك يعود الى سياسة الخديو اسماعيل . فأين بالله هذه الاخلاق الشريفة ، من ذلك النفاق والرياء المنتشر الان .؟

مثال من سمو همته

والدلالة على مبلغ احترام ذلك الرجل العظيم للعقائد الدينية نضرب مثلا جديرا بالاثبات .

ذلك أنه عندما أريد فتح شارع كلوت بك ، وهو من أهم شوارع مدينة القاهرة فى ذلك الوقت كان يقضى النظام لجعل هذا الشارع قويما أن يمر بكنيسة الاقباط الكبرى الكائنة بالدار البطريركية ، فعرض على الأنبا ديمتريوس البطريرك آنئذ أن تبنى له كنيسة أخر من هذه الكنيسة ، وكذا دار للبطريركية أخر من دارها الحالية كل ذلك على نفقة الحكومة فى نظير مرور الشارع معتدلا . فأجاب

البطريرك قائلا : انى اتشاءم من هدم معبد دينى ليكون طريقا كما أننى لا أرضى للجناب الخديوى — وأنا من الذين يقدرونه ويحترمونه — أن يوافق على هذا العمل

ولما عرض الأمر على الخديوى قال لتكن إدارة البطريرك وليبق المعبد قائما كما هو فلا بأس من التواء الشارع فى هذه الناحية .

الخلاصة

وقصارى القول أن عهد اسماعيل سيبقى أبد الدهر عصرا ذهبيا ساطعا ، تذكره مصر بالفخار وإن أبناء أجيالها على اختلاف طبقاتهم - كلما طالعوا سيرة عهده الجميلة - يؤمنون أنه كان على ما تخلله من الحوادث البارزة مفتتح رقيها الصحيح وفجر بلوغها الى المقام الرفيع الذى تحتله الان بين الأمم الراقية وكان كثير العطف على العلماء ورؤساء الاديان .

رحم الله الخديوى اسماعيل الكريم ونفعنا على مرور الأيام بفعاله الباهرة وحسناته الخالدة حتى يظل تاثيرها فى تاريخ يقظة الدولة المصرية وعظمتها الحديثة منقوشا فى الاذهان وخالدا على الأيام

عهد المغفور له الخديوى توفيق

ارتقى الخديوى توفيق عرش الخديوية المصرية ، بعد عزل أبيه وكان متحليا بصفات التواضع والبساطة ، بعيدا عن جميع مظاهر العظمة يميل بطبيعته للجراكسة والاتراك ، وكان محبوبا من الأمة المصرية لشمائله الرقيقة

* * *

المغفور له الخديوى توفيق

وكان فى عصره كما كان فى عصر أبيه ، تلقى مقادير الحكم الى واحد من ثلاثة وزراء وهم رياض باشا وشريف باشا ونوبار باشا ، وكل منهم ذو مزايا عظيمة لايجب بخسها ، وخدم جليلة قام بها للبلاد يجب الترنم بذكرها . وفى اعتقادى أن مصر لم توهب رجالا من عهد الخديوى اسماعيل الى الان أقدر وأعظم من هؤلاء الثلاثة ، فرياض باشا كان شغوفا بحب الوطن لايعرف الملل ، حاكما شريفا مهابا تخشاه الأمة على بكرة أبيها وجميع الوزراء والحكام والاوربيين كبيرا وصغيرا يعملون له حسابا حتى كرومر مع عظمته وكبر نفوذه المعروف ، كان يهابه جدا ويتحين الفرص التى يكون رياض فيها منشرح الصدر والخاطر فيطلب ما كان يود طلبه منه . وما نقوله هنا عن رياض باشا ، نقوله بالذات عن شريف باشا ونوبار باشا

رياض باشا وعظمته

ورياض باشا معروف فى جملة مواقف ، فانه فى عهد الخديوى اسماعيل حينما كانت تطأطىء رؤوس الامراء والنظارة أمامه ، وقف فى وجهه وحده من أجل جملة أعمال كان يعتقد أنها فى غير مصلحة الوطن . وما فعله مع اسماعيل فعل اضعافه مع توفيق ، ومنعه من التداخل فى ترشيح المستخدمين ، ومن اعطاء الرتب والنياشين ، ومن أمور كثيرة كان يعتقد أنها ليست فى مصلحة الوطن — وقرر أن يكون ذلك بناء على طلب مجلس النظار . ورياض باشا ما رفت ولا عزل من منصبه بأمر الحاكم مطلقا بل هو الذى كان يستقيل من منصبه مرارا عندما كانت الاحوال تسير على غير مبدئه . ماعدا ماحدث فى المسألة العرابية . ومع ذلك كانت تضطر الحكومة لاستدعائه لاستلام زمامها المرة بعد المرة . وكان هو المعالج الوحيد لحل مشكلاتها . واذا أردت أن أعدد الخدم التى قام بها رياض باشا للبلاد ، لاحتاج الحال لمجلد كبير . ولذلك اكتفيت بالتنويه العام والاشارة الى فضل هذا الرجل العظيم .

المغفور له رياض باشا

ونرجع الان لحديثنا عن الخديوى توفيق فنقول — قد وقعت فى عهده المسألة العرابية والبعض يسميها « الفتنة العرابية » ولكنى أسميها « بالحركة الوطنية » . وأخالف كل الذين يسمونها « فتنة أو عصيانا » أو نحو ذلك . وسأشرح مع الاختصار التام تلك الحركة :

الحركة العرابية

كان المبدأ المتبع فى مصر لغاية ذاك الوقت . أن جميع الوظائف تقلد للاتراك والجراكسة . وكل من جاء من البلاد العثمانية سواء أكان تركيا أو جركسيا أو أرنؤوطيا كيفما كان . من كبيرها لصغيرها ، وكانت تقريبا فى مقام التحريم على أهالى البلاد قاطبة ..!

المغفور له عرابى باشا

ظلت هذه الحالة سائرة فى عهد جميع الخديويين . ماعدا حالة واحدة لغرض خاص . قضت رغبة الخديوى اسماعيل بربط ضريبة جديدة . تسمى ضريبة « المقابلة » فاستخدم لجبايتها بعض أهالى البلاد . بوظائف حكام للاستعانة بهم على تحصيل تلك الضريبة . بصفة مؤقتة وبعدها عزلوا كما ذكرنا ذلك فى الحوادث التى حصلت فى عهد سمو الخديوى اسماعيل — ولكن رجال العسكرية لما كانوا من أهالى البلاد . قضت الضرورة اضطرارا أن تعطى لهم بعض الوظائف الثانوية . وأما الرؤوس والقواد الكبار منهم . فكانوا من الترك والجراكسة ، وكان هؤلاء يعاملون معاملة استثنائية فى كل شىء : الجنود والضباط الوطنيين بجميع أنواع القسوة والاستعباد والتحقير الذى ليس بعده مزيد — فنتج عن ذلك انفجار عظيم . وتذمر شديد من الضباط والجنود الوطنيين . ترتب عليه جمع كلمتهم . والاتفاق فيما بينهم على أن يطالبوا الحكومة بدون تردد بمعاملتهم على قدم المساواة معاملة الجراكسة والترك مهما تأتى لهم من ذلك . ولا يرجعون القهقرى حتى يحصلون على مبتغاهم . وكان زعيمهم الامير الاى عرابى بك . ولكن قبل الشروع فى العمل أخبروا جميع رجال

الجيش بعزمهم ماعدا القواد الجراكسة طبعا وأمثالهم ، فحل هذا لدى الجميع محل القبول والاستحسان ، مزودا بالوعد أن يكون الجيش رهن اشارة القائمين بالحركة وعضدا لهم . فبعد أن نالوا ثقة الجميع شرعوا أولا فى تقديم عريضتين : إحداهما لسمو الخديوى توفيق والثانية لرياض باشا الذى كان وقتها رئيس مجلس النظار وناظر المالية والداخلية والمعارف العمومية فرياض باشا مع ماهو معروف عنه من حدة الطبع والتأثر السريع من المسائل الشاذة ، قابل هؤلاء بغاية الرقة ، ولاطفهم كل الملاطفة ، ووعدهم بالنظر فيما يطلبون فانصرفوا على وعد أن يعودوا بعد ثلاثة أيام ، لسماع جواب دولته وبعد انصرافهم أخذت الناس تتحدث ، حتى هم أنفسهم عن حلم رياض الكبير . الذى أظهره خلافا لعاداته فى كل المسائل ، ويفسرون ذلك جملة تفاسير ، ولكنهم ضلوا السبيل . وحقيقة الامر أن رياض باشا عندما وقع نظره على العريضة وما فيها ، قال فى نفسه لقد خرج الجيش على الحكومة ، وهذا سيكون سببا لخراب البلاد ، فأراد أن يعالج المسألة بسياسة حكيمة مما يدل على بعد نظره . بأمل اصلاح الحالة وكسب الجيش للحكومة وكان ذلك متيسرا لولا الدسائس التى طرأت ، كما سيأتى البيان

بين الخديوى ورياض باشا

قلنا أن الوفد الذى رأسه عرابى فى تقديم العرائض قدم عريضتين ، احداهما لرياض باشا . والثانية للخديوى . فعريضة الخديوى لم يقف على أثرها أحد . والاغلب أنها مزقت ورميت فى سلة المهملات . وأما عريضة رياض باشا فقد حملها دولته وقدمها للخديوى ، وبعد أن تلاها الخديوى بامعان . وجه الكلام الاتى لرياض باشا فقال . — وهل رياض باشا بكل أهميته ونفوذه . تأثر واكترث بأقوال هؤلاء الفلاحين ؟ حتى أنه جعل للامر أهمية لدرجة أنه هو بنفسه حمل العريضة وأتى لى بها أنا أرى ياارياض باشا طرد هؤلاء وعدم الاهتمام بهم .!؟

فقال رياض باشا . مولاى ، المسالة ليست مسالة فلاحين ولاترك . انما المسألة مسألة الجيش فاذا ضاع الجيش من يدك ضاعت البلاد منك . فارجو من أفندينا أن

يمعن الرأي فى الأمر ويوليه ما يستحقه من الاهمية ، المسألة كبيرة جدا ، وأخشى بسببها ضياع البلاد وخرابها !

فقال الخديوى — ما انت رياض باشا الذى أعرفه أنا وغيرى ، جيش ايه وبلاد ايه ، كل هذا يرد فى فكرك ياارياض باشا من قبل جماعة مثل هؤلاء الفلاحين ؟ فقال رياض باشا — انى اترك أفندينا يفكر فى الامر يومين أو ثلاثة وسأعود للحديث معه من جديد وليعلم مولاى ان فكرى هو هو لا يتغير .!

وترك رياض باشا الخديوى ، وظل الخديوى مصرا على فكره ، وفى اليوم الثالث حضر الوفد لمنزل رياض باشا وسأله عن الجواب ، فقال رياض باشا ، أنه عرض الأمر على الخديوى ، ووعد بالنظر فى المسألة وسيعود لمقابلة الخديوى اليوم للبت فى الأمر ، وبعد ذلك يفيدهم . وهو يأمل فى انهاء المسألة بما يطابق رغبتهم . وأستعمل سياسة اللين والملاطفة اللذين استعملهما معهم فى المرة الأولى . وفعلا بعد انصرافهم ، توجه لمقابلة الخديوى وحدثه فى الأمر ، فقال رياض باشا ، لا حل للمسألة ياأفندينا إلا بأحد أمرين ، إما أن أفندينا يجيب طلباتهم ويطيب خاطرهم حتى تموت هذه الحركة ، وأما اذا كان مصرا اصراراً على عدم اجابة مطلبهم فيأمر بأعدامهم ، وبدون اجابة أحد هذين الطلبين فنحن أمام تهديد كما قلت لأفندينا يقضى بخراب بل ضياع البلاد . فقال الخديوى ، لا أجيب طلباتهم ولا آمر باعدامهم ، وهم فى نظرى لا شىء . فتركه رياض باشا وبمجرد انصرافه من السراى ، وصلت أخبار للعرابى على الفور بان رياض باشا فى الحضرة الخديوية ليعرض على مسامعه اعدامه هو وزملاءه رميا بالرصاص ، ولكن الخديوى رفض هذا الطلب . فقام عرابى وقعد لهذا الأمر هو ومن معه ، وتوجهوا فى الحال لمنزل رياض باشا . وقالوا له ياباشا استنجدنا بدولتكم لتساعدونا على مطالبنا لا لأن تطلب اعدامنا ، فما حقيقة الأمر ياباشا ؟ فقال لهم كل مابلغكم من هذا القبيل لاصحة له ، وبينى وبين الخديوى موعد اليوم للبت فى المسالة فطيبوا خاطركم واعلموا أنى فى جانبكم ، فقالوا نشكر الباشا ونحن على كل حال لانريد موعدا آخر غير هذا اليوم ننتظر فيه الجواب النهائى ، فقال لهم أرجو ذلك فتركوه وذهبوا — وقام فى الحال الى السراى واستخدم حدته المعروفة مع الخديوى ، لأنه اعتقد أن سموه هو الذى أوعز اليهم بتلك الاراء.

وفى أثناء ذلك حضر عثمان رفقى باشا ناظر الحربية فقال — أى الناظر المذكور — المسألة التى يخشاها دولة الرئيس ضعوها فى عهدتى وأنا الكفيل بحلها . فقال رياض باشا وهو كذلك . وعلى ذلك وضعت المسالة بين يدى ناظر الجهادية ليحلها فماذا فعل سعادة الناظر ؟

اندلاع نيران الثورة العرابية

قام رفقى باشا من لدن الخديوى وتوجه لديوان الحربية . وكان اذ ذاك فى قصر النيل . وطلب عرابى وزملاءه . فاجابوا الطلب فى الحال . وتوجهوا لمقابلته وبمجرد وصولهم لديوان الوزارة . قابلتهم قوة عسكرية أوفدها ناظر الحربية وبادرتهم بالقول « انزعوا سيوفكم وسلموها لنا » فقالوا ماذا فعلنا حتى تنزع منا سيوفنا ؟ فقيل لهم « هكذا أمر ناظر الحربية » فقالوا أمر ناظر الحربية مطاع . وخلعوا سيوفهم وسلموها فقيل لهم بعد ذلك « تفضلوا » فقالوا الى أين فقيل لهم (الى السجن) فقالوا ولماذا ؟ فقيل لهم (هكذا أمر ناظر الحربية) ! فقالوا أمره واجب الطاعة وتوجهوا مع حراسهم الى السجن . ولا تسال عن الفرح والابتهاج . الذى ملأ قلب عثمان رفقى باشا ناظر الحربية عندما تمكن من نزع سيوفهم وايداعهم السجن . ولكن هذا الفرح لم يدم بعض دقائق . إذ ماوصلت أقدام عرابى ومن معه الى سجن الحربية . حتى أقبلت الالايات كالمطر السائل من العباسية وجميع الجهات . بكل معداتها من ذخيرة ومدافع ونحوها . وحاصرت نظارة الحربية لقصد الانتقام . وانقاذ القواد المسجونين . فارتجت لذلك نظارة الحربية رعبا وخوفا . وهرب ناظرها بالقاء نفسه من احدى نوافذ النظارة الى نهر النيل . ولولا هذه الطريقة لما نجا من الموت .

خضوع مؤقت !

دخل الجيش النظارة وحطم أبوابها . وأخرج الضباط الذين وقعت عليهم الاهانة . فقادوا الجيش بزعامة عرابى الى سراى عابدين . وحاصروها ووجهوا اليها فوهات المدافع . وطلبوا أما اجابة مطالبهم فى الحال . وأما هدم السراى على من

فيها . فما كان من الخديوى سوى الامتثال والطاعة . لكل رغائب الجيش وكان ضمن طلباته . عزل الضباط الجراكسة والاتراك واستبدالهم بمصريين - وتشكيل مجلس عسكرى لمحاكمة ناظر الحربية مع سجنه رهين التحقيق - وعزل رياض باشا من خدمة الحكومة - وتشكيل مجلس نواب بمعنى الكلمة ينظر فى شئون البلاد - وتشكيل نظارة مسئولة أمام المجلس المذكور برئاسة شريف باشا . هذه طلباتهم التى طلبوها عند ما حاصروا السراى . فاجيبت جميعها . وصدرت بها المراسيم . فى الحال قبل مغادرة الجيش ساحة عابدين وشرع فى تنفيذها باجمعها

المغفور له شريف باشا

وهذه هى المرة الوحيدة التى عزل فيها رياض باشا من خدمة الحكومة . لأنه فى كل المرات كان هو الذى يستقيل من تلقاء نفسه .

والرجل ذو فضل عميم على البلاد . وقد قصد بعض المؤرخين تشويه سيرته عمدا . وأقصد بالذكر منهم . المرحوم ميخائيل بك شاروبيم . وذلك لحقد فى نفسه . بسبب غضب رياض باشا عليه . وعزله من خدمة الحكومة . فكل ماقاله هذا المؤرخ عن رياض باشا . هو بعيد عن الحقيقة . ومسطور عن غل ليس الا . ومن باب العدل والانصاف . ووضع الحقائق فى نصابها — أردت التنويه عن ذلك

نظارة جديدة

وبعد ذلك بدأ الجيش فى تحقيق جملة اصلاحات . منها تنظيم الجيش المصرى . ومنها تشكيل مجلس النواب من أعظم أعيان ومفكرى البلاد . وتعيين المرحوم

سلطان باشا رئيسا له وتشكلت نظارة يرأسها شريف باشا وعين فيها عرابى باشا ومحمود باشا سامى البارودى نظارا . فلم تدم طويلا وسقطت . وكان فى أثناء هاتين النظارتين . يواصل الجيش بجد واجتهاد اصلاح شؤون كثيرة وطنية ، وأصبحت الكلمة بعد أن كانت للجراكسة وللسراى للجيش الذى صار جيشا وطنيا بالمعنى الصميم . والتفت حوله قلوب أهالى البلاد وعضدته .

وكانت هذه الحركة . أول حركة وطنية أيقظت أهالى البلاد من سباتهم ، وعلمتهم المطالبة بحقوقهم . بعد أن كانوا أذلاء خاضعين

وبعد أن تشكلت النظارة برئاسة عرابى باشا . وبدأت تغلو فى الأمور ودخلت أعضاؤها المطامع الشخصية . انقلبت الحركة القومية من لونها الوطنى الجميل الى فتنة داخلية بغيضة !

بين العرابيين وسلطان باشا

وفى ذات ليلة : توجه العرابى ومعه كبار الضباط لمنزل المرحوم سلطان باشا الذى كان رئيسا لمجلس النواب — وطلبوا منه عقد المجلس فى الحال . فقال لهم الباشا أن دورة انعقاد المجلس انتهت . وحسب القانون لا يمكن الان عقده الا بمرسوم خديوى اذا كان هناك ما يستدعى ذلك فما هى الحالة الهامة التى لديكم حتى يمكنى أن استصدر المرسوم بعقد المجلس ؟ فانبرى للباشا فى الحال ضابط برتبة بكباشى اسمه عبيد افندى واخرج سيفه من غمده وقال : وحياة سيفى هذا أن تأخر انعقاد المجلس فى هذه الليلة ولم تجب طلباتنا لأقطعن رقاب الحاضرين — فهزأ المرحوم سلطان باشا بهذا الكلام وضحك قائلا للعرابى : أيمثل هذا ياعرابى تحكم مصر ؟ وأظهر الباشا غضبا عظيما . فاعتذر العرابى للمرحوم سلطان باشا هو وكل من معه من الضباط ، وأظهروا له الاحترام والطاعة ، وطردوا فى الحال من المجلس عبيد افندى ، وأخيرا خلا سلطان باشا بالعرابى وقال له ، ماقصدكم من اجتماع المجلس ؟ فقال العرابى استصدار قرار بخلع الخديوى عن العرش .

فقال له الباشا ، وهل الخديوى عين بأمر المجلس أو بقرار من الأمة المصرية ؟؟

فقال العرابى . هذا لايهمنا ، بل يهمنا أن نواب الأمة يصدرون قرارا بعدم رضاهم عنه ويقررون خلعه . فقال له الباشا ، هب أننا اتفقنا على ذلك فهل اتفقتم فيما بينكم عمن سيكون خلفا للخديوى ؟ فسكت العرابى . فقال له الباشا اجتمعوا بمنزلكم ، وقرروا فيما بينكم من تريدون أن يكون خديويا ، وحين ذلك يجتمع المجلس ويقرر اجابة طلبكم . فيكون قرار الخلع شاملا قرار تعيين الخلف . ويكون الخديوى الجديد مهيئا للجلوس على العرش . فاستحسن العرابى هذا الرأى . معتقدا أنه لا يمكن أن يرشح أحد نفسه سواه للخديوية على أن المرحوم سلطان باشا كان معتقدا كل الاعتقاد عدم نجاح ذلك الأمر نظرا لتنافس جميع ضباط الجيش المصرى فكل منهم كان يعتقد أنه أجدر وأحق وأليق من الاخر . ولذلك لم يجد سلطان باشا وسيلة للخلاص من هذه الورطة سوى الفكرة التى أبداها . وقد صحت ظنونه . اذ لما عقد العرابى مجلسا بمنزله من الضباط والأعيان . للمناقشة فى هذه المسألة . لم يفه أحد منهم بكلمة فقال العرابى . من اولى منى بهذا المنصب وانا قائد الحركة ، فانبرى له البارودى باشا وقال هل انت افضل منى وانا من سلالة سلاطين مصر القدماء؟ فقال طليه باشا موجها كلامه منهما :

المغفور له البارودى باشا

-- انت من سلالة سلاطين ، وعرابى قائد الحركة ، ونحن فى الرجلين! فقال له ماذا

نعمل - فقال أن المملكة مقسمة الى اثنى عشر مديرية . فيجب لكل فرد منا أن يكون خديويا على مديرية . فضحك الحاضرون كثيرا . واتفقوا على بقاء الحالة كما هى

الرجوع الى الحق فضيلة

وقصد عرابى فى الحال الى المرحوم سلطان باشا شاكرا ممتنا له - قائلا له . لو تم أخذ القرار بخلع الخديوى وأردنا تولية خديوى منا بعد ذلك لذبحنا بعضنا بعضا وجرت دماؤنا أنهارا . .

فنحمد الله على نصيحتكم (وقبل يده) فسر سلطان باشا سرورا عظيما لخلاصه من ورطة ليس من اختصاص المجلس النظر فيها من جهة ولنجاحه فيما دبره من جهة أخرى . على أن هذا لم يمنع العرابى ولا زملاءه من الامعان فى المطامع . واستئثارهم بكل نفوذ وسلطة فى جميع المصالح والاعمال . مما قلب كيان الحركة الوطنية النافعة الى فوضى واضطراب عام . وخاف الخديوى على حياته وخشى على عرشه من الضياع . فسافر للاسكندرية واستنجد بدولة بريطانيا ، فلما علم بذلك العرابى أعلن خيانة الخديوى للبلاد ، ولم يعتبر النظارة القائمة بأمر الخديوى ممثلة للحكومة المصرية . بل أذاع أنها نظارة تمثل الخديوى وحده ، وشكل نظارة بأمره . وعزل كثيرين من المديرين والحكام وولى بدلا عنهم أشخاصا من الموالين له . ونفذ كل ذلك بقوة الجيش . وأصبحت النظارة مشلولة الأيدى لا عمل لها ، واستمر عرابى يدير الحركة العامة كخديوى مطلق الحرية الى أن تدخلت انجلترا . وكانت قد عرضت على فرنسا الاشتراك معها فى العمل لقمع هذه الفتنة ، وتوطيد أركان الامن فى البلاد فتنحت فرنسا عن ذلك بلسان المسيو دى فريسينيه وزيرها وقتها . وكان لرفضها هذا المطلب فرح لدى الانجليز لانهم وأن كانوا عرضوا الأمر عليها . بالنسبة لاشتراك مصالح الدولتين ، الكبرى ، بمصر إلا أنها فى الحقيقة كانت تود من فؤادها الانفراد بالعمل وتم لها ما كانت تتمناه . على أن فرنسا رجعت فندمت ندما شديدا ولكن لات حين مناص . لأن الفرصة كانت قد مضت وقضى الأمر . ودخل الانكليز مصر . واحتل جيشهم البلاد . وقبضوا على عرابى وزملاءه وسجنوهم وعمل معهم تحقيق ، وحكم

عليهم بالاعدام . وتعدل الحكم بالنفى الى سيلان الى آخر ما شرحه المؤرخون . .

القضاء على الثورة

وكان الخديوى عند دخول الانكليز لمصر وقضائهم على هذه الفتنة . مقيما بسراى رأس التين بالاسكندرية ، فلم يرغب الدخول لمدينة القاهرة إلا بعد أن يعود اليها رونقها ونظامها ، الذى أفسده العرابيون فى آخر عهدهم . حيث جعلوها كقلعة حرب ، وكمستشفى لمرضى الحرب ، مما شوه منظرها وأزال بهجتها

سلطان باشا ثم مقام الخديوى

فعين المرحوم سلطان باشا نائبا للخديوى يقيم بمصر لاصلاح ما فسد فيها ، مع قيامه بجميع شؤون الحكومة لحين تأليف نظارة تتسلم زمام الأعمال . وفعلا تم ذلك الى أن استدعى رياض باشا من أوروبا وشريف باشا وتشكلت نظارة برياسة شريف باشا . تولى رياض باشا فيها نظارة الداخلية وحضر الخديوى للعاصمة معززا شاكرا لما قام به سلطان باشا من جلائل الاعمال . وفى أثناء قيام سلطان باشا بتنظيم الاحوال كانت ترد له برقيات كثيرة من الجهات عن تمرد بعض أناس يجب محاكمتهم وكان يأمر بسجنهم تحت التحقيق . وفى ذات يوم حين كنا على مائدة الطعام ظهرا ، وردت برقية من الفيوم تتضمن عصيان عمد المديرية فاصدر أمره بسجنهم تحت التحقيق . فقلت له وكنت أصغر الحاضرين سنا ، لماذا تأمر بسجن هذا وذاك ، أسجن أهل القطر كلهم لأنهم منهم من كان يخشى سطوة الجيش ، فاضطر أن يظاهره . ومنهم من كان يعتقد أنها حرب وطنية للدفاع عن الوطن . فليس هناك تفاضل بين واحد وآخر . فاما أن يشمل العفو جميع المصريين وكلهم كانوا أنصار الثورة ويحاكم الجميع ويعاقبوا جزاء ذلك .

قال سعادته وهو يبتسم :

— والله يا بنى أنك أعقلنا جميعا ولو أنك أصغرنا سنا!

ثم شكرنى على ذلك ومن يومها لم يستمع لشكوى ...

عظماء لا نظير لهم

المغفور له نوبار باشا

وبمناسبة الحديث عن سلطان باشا ، أكرر القول أن الثلاثة عظماء الذين أنجبتهم البلاد - وهم ، رياض ونوبار وشريف - لم يتح للبلاد أمثالهم حتى اليوم فى عظمتهم ووطنيتهم وما اتصفوا به من صفات النبل والكرم والشهامة وانكار الذات ، وليس لهم اليوم نظير أو ضريب !

اشراف الانكليز على البلاد

وقد وضع نظام بواسطة مجلس شورى القوانين تسير عليه البلاد المصرية تحت إشراف بريطانيا . كلف بوضعه المسيو دفرين باشتراك المرحوم شريف باشا. وكان الحارس الأمين على هذا النظام وتنفيذه ذلك الرجل العظيم . المقتدر العادل . اللورد كرومر فانه والحق يقال ، كان حاكما منصفا وحارسا أمينا . وقاضيا عادلا ومنظما حكيما شديد البطش عند الحاجة وديعا فى موضع الوداعة . وقام بجملة خدمات عظيمة للبلاد وأهلها وحمى الضعيف من القوى ودافع عن حقوق المساكين الذين لا سند لهم مما خلد له ذكرا لا يمحى ولا ينسى . عند مصر والمصريين ...

الجوارى البيض ..

وكان فى عهد الخديوى توفيق شائعا شيوعا تاما زواج الجوارى البيض اللاتى خلفهن الخديوى اسماعيل عند مبارحته عرش مصر - بقصوره وقصور والدته لبعض ذوات مصر . كما كانت تلك العادة متبعة وشائعة فى عهد والده الخديوى اسماعيل وكان من حظ الذين يتزوجون بهؤلاء الجوارى الالتفات السامى والانعام عليهم بالعطايا والهدايا . وكان المقرر إن كل جارية تتزوج تتكفل السراى بجهازها وملابسها وحليها . وينعم عليها « بأبعادية » مساحتها خمسماية فدان تعيش من ريعها ومسكن فخم وعربة يجرها جوادان من الجياد الصانفات . وزوجها يفضل عن سواه فى وظائف الحكومة . فادى ذلك الحال الى اقبال القوم من كل طبقة على الزواج منهن . وكان الازواج يعدون « محاسيب » السراى المقربين . وعلى الأخص الباش أغا الذى كان لهم أكبر عجد وسند بالسراى لتنفيذ كل رغباتهم . وجميعهم يقبلون أياديه باطنا وظاهرا . ويعدون أنفسهم منتمين اليه . وكان هو يتيه دلالا عليهم وكبرا واعجابا — كل هذه الأحوال السيئة كانت من أسباب تأخر رقى البلاد وتقدمها ولكن عهد الاحتلال الانكليزى قضى على كل هذه المساوىء ..

من حسنات توفيق

وكان من حسنات الخديوى توفيق أنه لا يميل الى الأذى ولم يسع قط فى اغتصاب مال الغير . بل كان عائشا عيشة بسيطة جدا . بعيدا عن المطامع ولا يعزى اليه أمر اخذ عليه سوى عدم كياسته فى المسألة العرابية

الوظائف التى تقلدها فى عهده

وقد عينت فى عهده مراقبا للاموال الغير مقررة بنظارة المالية ومدير عاما للدخوليات فما رأيت منه يوما ما طمعا مطلقا فى أى مطمع خاص . بل كان يمتثل

لنظام الحكومة ويحترمه ويسير بمقتضاه . كأحد الأفراد . وكان فى ذلك الوقت رياض باشا رئيسا للنظار وناظرا للمالية والداخلية والمعارف، وكان كما قلنا رجلا ذا شمم عظيم وأنفة كبرى ومقدرة عالية أذكر عنه ما يأتى من الحوادث التى رأيتها بنفسى

بين رياض باشا والمستشارين الاجانب

أهذه ملابس صيد؟

كان جناب المستشار المالى معدودا الثانى فى النفوذ والسلطة بعد كرومر . فدخل يوما على رياض باشا بنظارة المالية لابساً ملابس بيضاء وحزاما أبيض أيضا فقال له رياض باشا : هل جنابك قادم من الصيد ؟ فقال ، لماذا يادولة الباشا ؟ فقال له : لأن هذه الملابس ليست ملابس مصالح بل أظنها خصيصة للصيد !! ففهم المستشار الغرض . وفى الحال عاد لمنزله وغير ملابسه ووضع طربوشا على رأسه . وعاد للنظارة ودخل على رياض باشا فضحك رياض باشا فى وجهه وقال هذه ملابس النظارة ياجناب المستشار !

هل عينت وزيرا آخر؟

ودخل يوما السير غورست عندما كان مراقبا للاموال المقررة بالمالية على دولة الوزير وعرض عليه بعض أوراق أخذ فيها رأى دولته . ومن بين هذه الأوراق عرض عليه عريضة وردت له من بلدة بالتظلم عن أمر فقال لدولة الوزير — وردت لى هذه العريضة فأنا كتبت عنها بكذا وكذا . ولكنى قبل أن أرسل الرد ، أردت أن أعرض الأمر على مسامعكم لأرى اذا كان ما كتبته هو الصواب . فقال رياض باشا بحدة : هات العريضة . ثم أخذها ومزقها أربا . وقال له لاوجه لتقديم العرائض والشكاوى الا للوزير . فهل أنت عينت وزيرا آخر ؟ فسكت غورست مع ما كان عليه من الأنفة والكبرياء ولم ينطق بكلمة . وبعد ذلك حرر رياض باشا منشورا بأن العرائض لا تكتب الا للوزير مباشرة .

صفاته الرفيعة

وكان رياض باشا رجلا حكوميا قادرا على العمل لا يعرف للملل اسما ولا للتعب جسما ، مهما كانت حالته الصحية . لا يقتصر على العمل بالديوان بل يواظب على العمل فى منزله كل أوقات الفراغ حتى ساعة متأخرة من الليل . وكان موظفو النظارات التى يرأسها — وهى عادة المالية والمعارف والداخلية ورئاسة مجلس النظار — يلازمونه بأوراقهم فى سرايه لعرض اللازم منها والاستئذان عن مايلزم فى غير أوقات العمل وماوجد وزير بمصر خشية الولاة ، سواه . فانه كان لا يهاب ولا يبالى من معارضتهم فى كل أمر غير نافع للبلاد ، مهما جلب ذلك عليه من غضبهم . وكان رياض غير ميال لانتشار الموظفين الانجليز ، بمصالح الحكومة . ويقول لا بأس من اعطائهم حق الاشراف العام ، ولكن لا يصح انتشارهم بالمصالح .

بينه وبين اللورد كرومر

حتى وأنه عندما عرض عليه فخامة اللورد كرومر تعيين المستر اسكوت مستشاراً لنظارة الحقانية غضب غضبا شديدا ، ورفض بتاتا الموافقة على تعيينه . فألح اللورد كثيرا فلم يقبل رياض باشا . وخشى أن اللورد يحاول أخذ موافقة بذلك من الخديوى رأسا فاخبره بالأمر . وطلب منه أن لا يرتبط مع اللورد كرومر بأى كلمة فى هذا الموضوع . بل يحيل الأمر عليه . فوعده الخديوى بذلك . ولكن بمجرد أن قابل اللورد كرومر الخديوى وطلب منه هذا الأمر . وعده باجابة طلبه (والخديوى توفيق كان معروفا باللين) ففرح كرومر بذلك وعاد فى الحال لنظارة الداخلية . وقابل رياض باشا وأخبره بما كان . فغضب رياض باشا غضبا شديدا وصرخ بصوت عال جدا وقال هازا رأسه :

— الخديوى وعدك ومتى كان ذلك ؟؟ فقال اللورد — أنا قادم مباشرة من عنده يادولة الباشا . ؟

فقال رياض باشا — هكذا وعود الملوك !! الخديوى وعدنى قبل ساعتين بعدم اجابة هذا الطلب .. وبعد ساعتين وعدك بقبوله ! سأقابله وأعطى لك قولا فيما بعد .!

وفى الحال توجه رياض باشا للسراى . وقال للخديوى — كنت أظن مؤمنا أنك تقدر خدماتى للبلاد التى أنت سيدها ولك مصالح فيها أكثر منى .

ولكنك وقد خلفت وعدك معى . فاختر من تشاء بدلى . فانى مستقيل ، وهذه استقالتى . فارتبك الخديوى ارتباكا شديدا . وطلب من رياض باشا ملحا برجاء أن لا يستقيل بسبب هذه الحادثة لان ذلك يوجب سخط الامة عليه ويهيج الرأى العام ضده . .

فقال رياض باشا ، أقبل على نفسى ان أكون ضحيه عملك هذا ، حتى ينجيك من المسؤولية أمام الجمهور . ولكنى مصر على الاستقالة فيما بعد . وترك الخديوى وتوجه للنظارة وفعلا بعد صدور المرسوم بتعيين اسكوت بأربعة أيام استقال رياض باشا وكان النظار جميعا يخشونه ويهابونه للغاية

بينه وبين فخرى باشا

وأعرف من نوادره مع النظار أن المرحوم فخرى باشا ناظر الحقانية وقتها ، أصدر منشورا بناء على تعليمات المستر اسكوت لجميع المحاكم بمبادىء لا تنطبق على رغبة رياض باشا — وبمجرد اطلاعه على المنشور ، استدعى ناظر الحقانية وسأله قائلا : هل سعادة ناظر الحقانية كان فى غيبوبة حينما أصدر هذا المنشور ؟ فأراد فخرى باشا الاعتذار والتخلص من تبعة هذا المنشور . فلم يقبل منه رياض باشا . وقال له . آخر قول فى

المغفور له فخرى باشا

هذا الموضوع ، أما سحب هذا المنشور وتغييره بهذه الصورة (وقدم له صورة منشور كتبه بقلمه ، مخالفاً للمنشور السابق كل المخالفة) . وأما أن تستقيل . وأمامك ست ساعات للتفكير . فقام فخرى باشا وتوجه لنظارة الحقانية وعرض تفصيلات الأمر على السير اسكوت . فكان جواب اسكوت إنى أفضل سحب المنشور وتغييره بالصورة التى أمر بها دولة الرئيس على استقالتكم . لأنك موضع ثقتى وآمالى فى أصلاح الحقانية ، وعلى ذلك تغير المنشور وتم ما أراد رياض باشا واعتذر السير اسكوت لدولة رياض باشا . وانتهت هذه المسألة على هذا الوجه ...

بينه وبين نجراله باشا

ومن نوادره اللطيفة أن دخل عليه يوما بالديوان بعد الاستئذان المرحوم نجران باشا ناظر الخارجية ، وكان بيده عصاه ، فاستدعى رياض باشا الحاجب الواقف أمام الباب وقال له : سعادة الباشا نسى أن يترك عندك عصاه وقت دخوله هنا . فخذها من سعادته وأبقيها عندك وحين خروجه أعطها له . فخجل نجران وسلم العصا للخادم بدون أن ينطق ببنت شفه .!

بينه وبينى

ودخلت أنا أيضاً عند دولته لعرض مسألة هامة ، وجلست قبل أن يأذن لى بالجلوس ، فغضب . وقال لى (بحالة عصبية لم اعتدها منه) ماذا تريد ؟؟ فادركت الامر . وفى الحال وقفت ، وقلت لدولته — عندى مسألة هامة أريد عرضها على مسامع دولتكم . فقال ليس عندى وقت الآن . وبعد برهة من الزمن تذكر أنى لم أقصد بجلوسى الحط من كرامته أو عدم الاعتناء به — انما تلك هفوة غير مقصودة . وتذكر أيضاً أن المعاملة التى عاملنى بها كانت قاسية وشديدة . فطلبنى فدخلت عليه فوجدته باشاً مسرورا . فقال تفضل اجلس . ماعندك من الاعمال ؟ فعرضت ما كان لدى . وأخيرا طيب خاطرى قائلا « انما اذا عاملتك هكذا فما ذلك إلا لأنك عندى بمنزلة ولدى » . فكان هذا الخطاب موجبا للرضاء التام وأنسانى بالمرة مافات .

قاسى منى مع أولاده

وكان من طبعه الميل الشديد للعدل والمساواة حتى ولو كان ذلك يؤدى لضرر ذويه بل وأولاده . وأضرب مثلا لذلك نادرة واحدة تدل على كثير مثلها من هذا القبيل ..

كان يدخل ضمن دائرة عملى بنظارة المالية — مراجعة جميع احكام مجالس التأديب بالحكومة وفروعها ، فراجعت حكما صادرا من مديرية أسيوط وكان المدير وقتها المرحوم محمود رياض باشا نجله — فوجدت أن الحكم كله ظلم فقد حكم على أناس بالرفت من خدمة الحكومة بدون حق وبغير أدلة تبيح هذا الحكم فلم ترض ذمتى الموافقة على هذا الحكم مراعاة لنجل رياض باشا ، فدخلت عليه وقلت له فى صراحة مايأتى :

— طمعا فى عدلك المشهور ، أتجاسر بأن أرفع ضد نجلكم محمود رياض باشا شكوى على تصرفه الغير العادل ، حيث أنه أصدر حكما ظالماً ضد موظف ، ضعيف لم تسمح له وظيفته بالمثول أمام المدير للدفاع عن نفسه ، فحكم عليه بالرفت والحرمان وأنا أعرف أن دولتكم لاتقبلون وضع اسمكم الشريف على مثل هذا الحكم ، فسر جدا رياض باشا من كلامى ومن صراحتى ، وكتب بيده خطاباً شديد اللهجة توبيخاً وتعنيفاً لنجله محمود رياض ، وأمرنى بالغاء الحكم ، واعادة النظر فيه ، ففعلت ما أمرنى به ..

مجالس استئناف أحكام التأديب

وانتهزت هذه الفرصة وعرضت على دولته ، أنه طالما زمام الأمر بين يديكم فلاخوف من ظلم أحد . ولكن هل يمكن ضمانة ذلك مع الغير ؟ فقال لى باسما ، وماتريد أن أفعل ؟ فقلت لدولته إذا سمح مولاى فليكن لمجالس التأديب بالفروع ، مجالس استئناف لاعادة النظر . وقد يمكن أن تكون مجالس الاستئناف مجالس

النظارات ، لأن فى ذلك خير ضمان لعدالة الاحكام . فاستصوب كثيرا هذه الفكرة وأمر فعلا بتنفيذها . وكانت هذه الطريقة أكبر ضمان لسير العدالة والانصاف . وقلت لدولته أيضاً ، ومن هذا القبيل مصلحة تعد نفسها غريبة عن نظام الحكومة وهى مصلحة الدايرة السنية . فان مستخدميها يقاسون العذاب الأليم ، من أحكام مجلس تأديبها الظالم ، بسبب استبداد رئيسها فريد باشا المعلوم أمره للجميع . على أن معاشات موظفى هذه المصلحة تدفع من خزينة الحكومة (المالية) فهلا يستصوب دولة الوزير أن يكون استئناف مجلس تأديب الدايرة السنية بمجلس نظارة المالية ؟ فقال هذا حق وعدل ، وأمر بتنفيذ ذلك ايضاً ..

غضب فريد باشا من هذا الامر

فادى هذان الأمران خدمات جليلة لاتحصى للموظفين جميعا . بالفروع وبالأخص موظفى الدائرة السنية . إلا أنهما استوجبا سخط المديرين المستبدين ، وعلى الأخص فريد باشا ، لأن استبداده تقيد بسلاسل من حديد ، لا يمكنه تحطيمها حتى أنه حضر لنظارة المالية ، وتقابل معى وأراد اقناعى بالغاء هذا الاجراء مدعيا أن ذلك يقلل من نفوذه وسلطته ..

فقلت له — ولكن فى تخابرك — أعرض هذا على دولة الوزير . وربما عندما يفهم أن ذلك فيه تقليلا من نفوذك ، يعود فيعدل عن هذه الفكرة . فقام بالفعل وعرض الامر على رياض باشا ، فترتب على ذلك سخط رياض باشا الشديد عليه فوبخه توبيخا عنيفا . وأمره بانه اذا كان يتضرر من هذه الاوامر أن يستقيل فخرج فريد باشا حزيناً لا يتمنى سوى عفو الوزير عنه . فتوسط المرحوم محمود باشا دبوسغلى أعنى صهر رياض باشا ووالد المرحوم حسين رشدى باشا لدى دولة رياض وطلب العفو عن فريد باشا ، فرضى مشترطا بان الاستئناف الذى تقرر للتأديب لا بد منه وانه مع ذلك اذا سمع أنه ظلم أو جار على انسان فسيحاكمه هو نفسه !

عبد الرحمن رشدى باشا

ومن الذين تولوا نظارة المالية فى عهدى خلاف رياض باشا ، المرحوم عبد الرحمن رشدى باشا ، وهو رجل غزير العلم عظيم الفكر محترم إحتراما كثيرا عند الانجليز وسواهم . وكان قويا جدا ومقتدرا عظيما فى فن الحسابات ومسك الدفاتر . وكان يتقن جملة لغات إتقانا تاما منها الانجليزية والفرنساوية والتليانية . وكان بعيد النظر . ثاقب الفكر ، رقيق الجانب ، لطيف المعاشرة ، يقدر كل عامل حق قدره ، وكان له ثقة كبرى بى ، حتى أنه عرض عليه فى ذات يوم ، زميلى جناب السير غورست — وكان إذ ذاك مراقباً للاموال المقررة — خطاباً محرراً لاحدى الجهات باللغة العربية ، فقبل التوقيع عليه دعانى وقال لى : أرجوك تلاوة هذا الخطاب . وإذا كان لك فيه فكر فابدها . فقرأت الخطاب ونقحته - كما تراءى لى ، وبعد ذلك وقع عليه ، فاوجب ذلك غضب السير غورست منى فحضر عندى بمكتبى وقال لى غاضباً .. لماذا تتدخل فى شغلى ؟! فجاوبته باسماً ، غريب منك هذا القول . أنا لم اغتصب منك عملا فاذا كنت تقصد عدم اطاعتى للوزير ، فى تنفيذ أمر أمرنى به فيجدر بك أن تسأله هو عن ذلك . وأخيراً تفاهمنا واصطلحنا ...

وكان المرحوم عبد الرحمن رشدى باشا محل احترام الانكليز التام ولكن لم يخول له من السلطة أكثر مما كان لغيره ..

أما الوزير الوحيد الذى قام بحق النظارة أصدق قيام ، بغير شريك فكان رياض باشا ، كما أسلفنا القول ..

وكلاء الوزارات الانكليز

أما وكلاء الوزارات الانجليز الذين كانوا فى عهدى ، فهم - بلوم واللورد ملنر ، ودكنس ، ومتشل انس ، والمستشارون بالمر ، وغورست

بالمر وصفاته وعبرالقصة

فبالمر كان رجلا سريع الفهم نشيطا للغاية ، لا يؤجل عمل اليوم للغد ، وكان فى عهده كأنه كرومر الثانى فى سلطته ، وأعمال الحكومة . فكان الكل يخشونه ويهابونه ويسعون بجهدهم الى رضائه الا رياض باشا فكان على العكس . فبالمر هو الذى كان يطلب رضـــاه . وكان رجلا محبا للحق ، عادلا حتى ولو تقاضى أمامه مصرى وانجليزى فكان ينحاز لجانب الحق . ولـكنه كان ككل مستشار ممســك للغاية فى الميزانية . ومن أمثال عدالته أنه كان يوجد من الموظفين الانـكليز ، الذين يشتغلون ببعض الفروع التابعة لمصلحتى ، شخص يسمى « هوكر » . فهذا الموظف وجد يوما بالسراى الخديوية فى يوم تشريفة . ومع أنه من الذين يجب أن يكون صفهم فى التشريفة مع موظفى الفروع بعد صـــفوف موظفى الوزارة الذين هم عموم الفروع ، فقد تجاسر بسماجة غريبة ، لاتعرف للحياء ولا للذوق وجها — فقال لى وأنا رئيسه ، لايصح أنك تدخل قبلى وأنا انـكليزى ؟؟ فقلت له يظهر أنك تجهل الصف الذى تدخل فيه ! واستدعيت المرحوم خيرى بك التشريفاتى ، وقلت له هذا الخواجا لايدرى اين محله ، فأرجوك أن ترشده إلى المحل المقرر لوظيفته . فقال له خيرى بك يامستر هوكر هنـا ليس محلك ؟! تعالى معى أنا أرشدك اليه ؟ .. فغضب هوكر وعد كلامى أهانة له وطلب من الحاضرين أن يكونوا شهودا . فقلت للحاضرين من لم يسمع من حضراتكم كلامى فأعيده عليه . حتى تحفظ الشهادة غيباً . وبعد أن انقضى وقت التشريفات ، عدنا للنظارة . فسبقنى وقدم شكواه من تصرفى لوكيل المالية وكان إذذاك السير غورست . فدعانى وكنت متهيج الأعصاب لما حدث - وعقدت النية على ألا أتساهل فى شىء ولو اقتضى الحال اعتزالى الخدمة واستقالتى من الحـكومة . فعنـد دخولى على غورست بادرنى بالقول ، لماذا ياقليني بك قومت القيامة بالسراى فى هذا اليوم على هوكر ، فقلت له ، هذا كذب؟ من قال لك هذا القول ؟ فقال لى أخبرنى به المستر هوكر — وكان بجانبه — فكررت القول قائلا هذا الكلام كذب محض . فقال نعم نعم . قص على أنت ماجرى ، فقلت له . أنا توجهت للتشريفات حسب العادة ،

وبحسب النظام المعمول به من قديم ، وقفت فى المحل المعين لى . وفى أثناء ذلك ، رأيت هوكر آتيا مخترقا الصفوف مسرعا نحوى قائلا لى ، لايصح أن تدخل قبلى ، وأنا بعدك مع أنى انـكليزى . فقلت له يظهر أنك تجهل النظام ، ولم تعرف محلك . وأشرت الى أحد رجال التشريفات بأن يرشده اليه . هذا كل الذى حصل ، ولم أكن أنا البادىء به ولا أنا المحرك له . فقال لى مغرضا - والغرض مرض - وهل نسيت ياقليني بك أن مرتبه أكثر من مرتبك ؟ فضحكت وقلت له وهل تحاكمنى على ذنب انت اقترفته فى حقى ؟! كيف يكون مرتب الرئيس أقل من مرتب المرءوس ؟ فقال لى أنت فى هذا اليوم عصبى المزاج ولنبق هذه المسألة للنظر فيها ليوم آخر . فقلت له كل يوم تسألنى فيه ترى منى حدة الطبع التى تراها الان ، فالاحسن أن تحكم فيها بما تريد اليوم فرفع الأمر الى السير بالمر ، وقص عليه المسألة ، فغضب السير بالمر غضباً شديدا عندما سمع القصة . وقال هذا أمر يوجب الخلل فى نظام الأعمال ، وقال لهوكر فى الحال أما أن تطلب « بردون » من قليني بك وأما تستقيل فى هذه الساعة ! فحضر هوكر لمـكتبى وطلب الاذن بمقابلتى فاذنت له فدخل بكل تواضع وطلب منى « بردون » وهو واقف مـكشوف الرأس بكل خضوع فاستغربت هذا التغير الفجائى لأنى لم أعلم مافعله السـير بالمر فطبعـا عندما رأيت ذلك منه ، عاملته بكل لطف ، وأجلسته بجانبى ، وطلبت له قهوة حسب تقاليد بلادنا ، وانصرف ماكان بصدورنا ، وانتهت المسألة . .

العبرة من هذه القصة

وغرضى من بسط هذه القصة اقامة الدليل والبرهان على عدالة السير بالمر . فقد كان يميل جداً للنظام فى الاعمال ولما كان من طبعى حب الترتيب والنظام انتهزت هذه الفرصة وعرضت عليه مشروع ميناء للتجارة بمصر تشبه مينا البصل بالاسكندرية . اخترت مكانا لها روض الفرج وهى الجهة الـكائنة بحرى المدينة ، المعروفة الان بساحل روض الفرج وكلها مواقع صحية وخلاء فاجابنى الى طلبى ، وكان هذا أول عمل بمدينة القاهرة من هذا القبيل ، وحضر افتتاح هذا الميناء جناب الخديوى واللورد كرومر

وسائر القناصل وأعيان المدينة وكبرائها ، وكان أعظم عيد تجلى فى هذا الاحتفال الباهر . . !

السير غورست وشرف نفسه

واما السير غورست فكان له معى كثير من النوادر تارة وهو زميلى ، وأخرى وهو وكيل المالية . ثم وهو مستشارها ، لكن الحق يعلو ولا يعلى عليه . فالرجل كان ذكيا جداً ، سريع الخاطر ، شريف المسلك ، عزيز النفس للغاية ، ولكنه كان يراعى مزاجه الرقيق ، فكان يميل لركوب الجياد وسباق الخيل ولعب التنس وملاطفة الجنس اللطيف - وأنا على شاكلته فى هذا الموضوع ولا فخر ! - فكان يمل العمل بسرعة . وأظن ذلك كان لاعتلال صحته . ومع ذلك قام بخدمات جليلة لمصر والمصريين ولاسيما فى دوائر الحكومة . ومن الخدم العظيمة التى أداها لمصر ، أنه عندما عين مستشارا للمالية ، دعانى يوما اليه ، وقال لى أريد أن أفعل شيئا يرضى أهالى البلاد ويجذبهم لمحبتى ويكسبنى رضاهم . فانت مصرى وخدمت بالأقاليم والمدن ويمكنك أن تدلنى على شىء يرضيهم ، فقلت له نعمت الفكرة!

اقتراحى بالغاء ضريبة الدخوليات

قلت له اذا أراد سيدى أن يرضى الجمهور ويكسب قلوبهم فلا يكون احسن من الغاء ضريبة الدخوليات بجميع الاقاليم ومصر والاسكندرية عملا ، والغاء عوايد الهويسات ، فان تلك الضرائب لايوجد أثقل منها على النفس . فقال انى موافق على رأيك وسأفعل ذلك ، ولكن الذى يدهشنى أن هذه الضرائب هى التى تتكون منها مصالح ادارتك فكيف تطلب منى الغاءها ؟؟ مع علمك أنك بعد ذلك لا أعمال تبقى لك . هذا سر لا يمكننى أدراكه ؛ فقل لى السبب - فقلت له باسما - سيدى أنا من أهل البلاد وبنيها ، وهذا الخير الذى تريد أن تفعله بالبلاد يعمنى ، ويعم عشيرتى إلى الأبد ؟! ولكن الوظيفة تقليد ، جائز تبقى لى اليوم اوتزول عنى غدا . على أن كل محب لوطنه يجب عليه تضحية نفسه لمصالح بلده . فأريد أن أقلد أفاضل القوم مرة

فى حياتى !! فسر جدا من كلامى وهنأنى - وفعلا أتم هذا العمل بسرعة ، فاجتذب محبة أهالى القطر جميعا . وله أعمال جليلة يقصر قلمى عن حصرها - وسأذكر منها شيئا عند كلامى عنه لما كان معتمداً سياسيا خلفا للمرحوم اللورد كرومر

بلوم باشا وأعماله

وأما الوكلاء فمنهم بلوم باشا - وهو اسرائيلى نمساوى ، وكان رجلا يندر أمثاله فى النشاط والهمة يميل لفعل المعروف ويؤثر الخير مع الناس ، محبوبا من كل مستخدمى النظارة ، وخدم زمنا طويلا نال فيه صيتا كبيرا وشهرة عالية لدى الجميع

اسمعلوم بك وسماجته

وكان فى عهده يوجد موظف يسمى اسمعلوم بك وهو رجل غريب فى بابه . وكانت وظيفته مفتشا بالمالية ولكن نفوذه كان يقل عن نفوذ وكيل المالية . فلما عينت حديثا بنظارة المالية وكان ذلك فى عهد وكاله بلوم باشا فبينما أنا جالس بمكتبى وقائم بعملى مع بعض الموظفين التابعين لادارتى ؛ واذا بجاويش يدخل ويقول للموظف الذى كان يشتغل معى ، تفضل البك يدعوك؟ فوضع أوراقه على مكتبى وهم بالخروج طوعا لاشارة هذا الجاويش ، فاستغربت جدا ودعوت هذا الموظف . وقلت له : الى أين أنت ذاهب ؟ فقال البك يطلبنى ! فقلت له : أى بك ؟ فقال اسمعلوم بك !! فقلت هل أنت موظف تحت إدارة اسمعلوم بك ؟ أو هل اسمعلوم بك شريك لنا فى ادارتنا فقال لا ! فقلت لاتذهب اليوم ولا فى أى يوم يطلبك واذا علمت أنك توجهت يوما ماليه فلا بد من رفتك . ودعوت أيضاً الجاويش الذى كان قد حضر لهذا الغرض وأفهمته بأنه اذا حضر يوما آخر وطلب أى موظف من التابعين لمصلحتى فلابد من طرده . . !

وبعد ذلك توجهت لمقابلة بلوم باشا وأنا بالطبع منفعل من هذه الاجراءات وقلت له إن نظام المصلحة نظام فوضى وأنا لاأقبل ذلك. ما معنى أن واحداً خارجا عن

مصلحتى يتصرف فى شأن موظفى أدارتى بدون أذنى ؟ فقال لى لاتغضب ، وأنى أعدك بأن هذا الأمر لن يتكرر . واحضر فى الحال اسمعلوم بك وقال له يظهر أنك تجهل طباع قلينى بك . فأرجوك أن لاتتداخل مطلقا فى شؤون مصلحته ولا فى أمر موظفيه واحذرك كل التحذير أنه اذا تكرر منك ذلك فسيعرض أمرك على رياض باشا . ووقتئذ لا يمكن أن ينجيك أحد منا ، فخاف اسمعلوم كل الخوف وعمل على ارضائى وكف عن تصرفاته الشائنة ..

اللورد ملنر وعظمته

وأعقب بلوم باشا العالم الكبير صاحب العقل الواسع والفكر الثاقب جناب اللورد ملنر الذى عين واليا على الترنسفال . وكان رجلا رقيق الاخلاق لطيف المعاشرة عالى الهمة ، كبير النفس مع استحياء : كل الصفات الحسنة كانت متجلية فيه ، ولم أعرف له سيئة واحدة وعلى نقيضه كان متشل أنس الذى كان وكيلا للمالية خلفاً له.

متشل أنس وسخافته

كانت صفاته كلها سيئات فلم أعرف له حسنة واحدة ، بليد الفهم ، وكان ميالا للاذى والشر ، لايفى بوعده مرة واحدة . كذوبا فى جميع أقواله . يسر ويرقص طربا كلما تيسر له أذى بنى الانسان . ويحزن حزنا شديدا اذا بدا على يديه عمل خير . قل أن يوجد مؤذ شرير نظيره ، لا بين الانجليز ولا بين المصريين على السواء . باستثناء واحد فقط وهو فريد باشا الذى كان ناظرا لدائرة السنية فان أخلاقه كانت تقريبا مثل أخلاق متشل أنس . وأما المستر دوكنس الذى كان وكيلا للمالية بعد المستر متشل أنس فكان رجلا طيب القلب ، فى أخلاقه شىء من أخلاق الدراويش ، بعيداً عن الأذى ، كريم العنصر أديبا فى أفعاله وأقواله ..

امانة التاريخ

وقبل أن أختم الكلام عن المالية ورجالها لا أريد أن أنسى نفسى ، فسأتكلم كلاما اجماليا عن مصلحتى التى توليتها وماجرى فيها . وأرجو من القارىء أن يعتقدنى صدق كلامى ، لأنى أقسمت انى لا أكتب فى مذكراتى الا حقائق شاهدتها بعينى وفعلتها بنفسى مجردا عن كل غاية وغرض حتى ولو كانت عن شخصى ، مؤديا للتاريخ أمانته المقدسة .

المصالح التى كنت أديرها

فالمصالح التى كانت تحت إدارتى وكنت عليها مديراً عاما هى مصالح دخوليات مدن مصر واسكندرية وبور سعيد والاسماعيلية والسويس ودمنهور والمنصورة وطنطا والزقازيق والمحلة الكبرى وبنها والجيزة والفيوم وبنى سويف والمنيا وأسيوط وسائر المدن الرئيسية ، ومصالح الاسماك بعموم القطر المصرى سواء كانت بالمياه الحلوة أو المالحة . والملاحة بالنيل للوابورات والذهبيات وسائر المراكب بأنواعها ومصالح الملح والنطرون والضربخانة . وكافة مايتعلق بدمغة المصوغات الذهبية والفضية وكل أنواع الدمغة ونحوها .

وكانت تدخل ضمن ادارتى أيضا . الادارة العربية بنظارة المالية . وكان يشملها النظر فى جميع أحكام مجالس التأديب لمصالح الحكومة . وطلب الرتب والنياشين لمستخدمى المالية وفروعها . وكل أعمال المحمل الشريف بما فى ذلك تحضير الكسوة وإرسال الهدايا من غلال ونحو ذلك الى مكة المكرمة . هذه هى المصالح بطريق الاجمال التى كنت أرأسها . وفوق ذلك كنت رئيسا لمجلس تأديب الدخوليات وعضوا بمجلس تأديب نظارة المالية ، وعضوا باللجنة المستديمة لتعيين المستخدمين بسائر مصالح الحكومة . وعضواً بلجنة تنقيح قوانين المحاكم مندوبا من قبل المالية

بعض أعمالى بهذه المصالح

فبحمد الله تعالى قمت بسائر ما كلفت به أحسن قيام بشهادة رؤسائى ، وهم بالمر وملنر ، وغورست ، واللورد كرومر ، وزادت الايرادات فى عهدى نحو ٦ر٣٤٤ر٣٢٠ جنيها أى بواقع ٥ فى المائة عن ايرادات الادارة السابقة التى كانت فى عهد المسيو مازوك ، فاوجب ذلك حقده على حقدا شديدا . ومن سوء حظى صادف حقده آخرين أكثر منه حقداً ، وهم متشل أنس ، واسمعلوم وهوكر ، الذى كان يطمح فى أن يتولى منصبى لانه انكليزى ليس الا ! واسمعلوم بك لانى قفلت فى وجهه أبواب المنافع التى كان يجرى وراءها فبينما كنت أتقلب على أحر من الجمر من دسائس هؤلاء الكاشحين ، وكل منهم له نفوذه - كنت اسمع أقوال البعيدين عنى تحمل الى الثناء العاطر ، والمديح الجزيل ! وخرجت ظافرا وكلهم أى حسادى أصبحوا أذلاء فشكرت الحق تعالى الذى نصر الحق ، وأنى لاأخش لومة لائم اذا قلت انى خدمت الفلاح المسكين والتاجر الصغير خدمات لاتعد ولاتحصى وسعيت فى رفع جملة عوائد كانت تؤخذ من الفقراء والمساكين فالغيت عوائد الحدائق التى تتبع المنازل وعوائد المراكب والهويسات ، والغيت العوائد التى كانت تؤخذ على قرافة الامام الشافعى وخفضت كثيرا من عوائد دمغة المصوغات ، والغيت ، كى المواشى بالنار لأن ذلك كان عذابا أليما للحيوان ورفعت شأن المستخدمين وجعلتهم جميعا من أرباب الضبطية القضائية وحليت صدور المجتهدين منهم بالنياشين وجعلتهم بدرجة مستخدمى المالية والداخلية وسعيت فى انشاء كوبرى الجيزة منعا للزحام الواقع بكوبرى قصر النيل وتم ذلك فعلا وأنشأت مينائين عظيمتين للتجارة بمصر كما سلف القول وبذلك تطهرت المدينة من الحرائق وخصصت مواقف مخصوصة للمراكب حفظا لماء النيل من الفضلات حتى لاتتفشى الامراض منها بالقطر وعملت أعمالا كثيرة أوجبت فخر رؤسائى فلا ضير على اذا ذكرتها . وكلها مدونة بسجلات الحكومة الرسمية وختمت أعمالى بالحكومة بان عرضت الغاء مصالح الدخوليات للتخفيف عن عاتق الفلاح المسكين فالغيت كطلبى ، وأنا مسرور جدا لهذه التضحية لانها بعض واجبات المرء نحو وطنه

العظماء الذين توفوا فى عهد توفيق

وفى عهد الخديوى توفيق توفى من كبار الرجال ، شريف باشا وسلطان باشا وعلى مبارك باشا . فشريف باشا سبق أن ذكرته ضمن الثلاثة المعروفين وهم نوبار وشريف ورياض . وقلت عنه أنه من أعظم القوم شرفا وحباً للوطن ، وربما كان هو ورياض باشا الفردين اللذين لم يهابا اسماعيل دون جميع القوم . وأما المرحوم سلطان باشا فيجب أن أشرح شرحا وافيا بعض سجاياه لانى أعرف الناس بها وأقرب العارفين به

عود الى سلطان باشا

سلطان باشا من أصل مصرى وربما كان يمت بصلة للعرب . وكان من عهد نشأته ذكيا ذكاء مفرطا على أنه لم يتعلم بالمدارس ولكنه كان فصيحا جدا واتقن اللغة العربية على كبر ، حق الاتقان سمح الوجه طلق المحيا مفطورا على حب الخير ، كثير الحسنات للفقراء صاحب همم عالية لايخيب من يقصده ، وكان بالطبع فى أول نشأته كسائر أولاد العمد والاعيان . وكان أول منصب يتولونه اما العمودية ببلادهم أو المشيخة وكان بينه وبين المرحوم الشريعى باشا صداقة تامة ، والشريعى وقتها كان ناظر قسم قلوصنا اعنى مأمور مركز قنوصنا ومن المقبولين لدى الخديوى سعيد . . .

كيف عين بالحكومة

طلب الخديوى يوما ما من الشريعى أن يرشده الى احد أعيان البلاد اللائقين ليعينه ناظر قسم - فعرض لجنابه الرفيع اسم المرحوم سلطان باشا ووقتها كان يسمى الحاج محمد ابو سلطان عمدة زاوية الأموات فطلبه الخديوى سعيد وحادثه فسر من اجوبته سرورا عظيما وقال له هل يمكنك ان تضيفنى وجنودى ببلدك ؟ قال نعم يا أفندينا وهذا غاية شرفنا فقال له بعد ثلاثة أيام أنا حاضر . وفعلا توجه اليها الخديوى

بمعيته وعسكره قاقام لهم ابو سلطان السرادقات — ومد الموائد على الطراز العربى ، فأكلوا هنيئا وشربوا مريئا وبعد ذلك قال له الخديوى — مع سرورى التام من كرمك لااخفى عليك ان منزلك الذى تسكنه لايليق بضيافة الملوك ، وأنا قائم الى السودان وتستغرق سياحتى خمسة أشهر . فعند عودتى سأعرج عليك . وأنزل ضيفا عندك ولكن فى منزل غير هذا — يليق باستقبال الملوك ، فقال له سلطان باشا نعم يا أفندينا : سيكون ذلك !

تشييده أفخر قصر

وبعد سفر الخديوى ، قام سلطان باشا لمصر واجتمع بالمرحوم الشيخ على الليثى ، الذى كان بينه وبين سلطان باشا صداقة . وطلب منه أن يرشده الى مهندس قدير ، كى يرسم له قصرا يريد انشاءه ويكون لائقا بالجناب الخديوى ، فارشده الى ما رغب وقام المهندس صحبة سلطان باشا الى زاوية الأموات ، ورسم له قصرا جميلا فى وسط حديقة مساحتها عشرة افدنة وشرع بهمة لاتعرف الكلل فى بناء القصر وتنظيم الحديقة ، واستحضر له مفروشات فاخرة ، حتى أنه عند عودة الخديوى : كان كل شىء قد تم . فدهش الخديوى لهذا العمل وزاد اعجابه وتضاعفت غبطته وأمر فى الحال بتعيينه ناظرا لقسم قلوصنا محل الشريعى . ورقى الشريعى باشا الى وظيفة وكيل مديرية بنى سويف ..

من عبقريات وطنيته

هذا كان مبدأ حسن الطالع للمرحوم سلطان باشا . وقد أظهر مهارة تامة فى وظيفته ، وغيرة عظيمة على مصالح الاهالى والدفاع عنها . حتى أنه كانت فى ذلك الوقت معظم أطيان الاهالى وثروتهم وممتلكاتهم ، مرهونة لطوائف اليونانيين والاروام ، بسبب الربا الفاحش الذى أفدح كواهلهم فاجتهد المرحوم سلطان باشا ، بأن خلص أطيان مركزه من براثن الربا وردها لاربابها . ومن نوادره اللطيفة أن أحد الأروام المدعو الخواجا بسيلى كانت له مودة شديدة مع المدير وقتها ، وكان اسمه حسن باشا أبو نيشانين وبواسطة هذه الصداقة كانت تصدر الأوامر المشددة من المدير لمأمور المركز بأن يساعده

فى خلاص ديونه من الاهالى . ومن يتأخر منهم تسلم أرضه للخواجا رهنا له وقل ملكا اذا أردت . فحدث فى عهد المرحوم سلطان باشا أن أصدر مثل هذا الأوامر ، فما كان منه الا أن كتب للعمد والاعيان وكل من هو مدين للخواجا ، أن ينفذ أمر المديرية فى سداد الدين حالا وبدون ابطاء — وبعد الكتابة بهذا المعنى استحضرهم جميعا ، وعقد منهم جمعية وأصدر لهم أمرا شفاهيا ، بأن ما كتب لهم هو تسديد نمرة ، وأمرهم بأن لايسدد أحد منهم قرشا للخواجا . ومن يدفع منهم يحاكم . ففرح المدينون ووقفوا فى وجه الخواجا — وظل الخواجا يشكو ، والمدير يكتب وأبو سلطان يبلغ ويشدد فى التسديد ! كل هذا بأمر رسمى ، وبأوامر غير رسمية يأمرهم بعدم السداد الى أن ساءت حال الخواجا بسيلى ، فوقع فى جاه أبى سلطان . فقال له الاهالى فقراء وانتم سبب فقرهم وأصبحوا مجردين فمن أين يدفعون ربا كم ؟ اذا أردت أن أساعدك فهناك حل واحد وهو ترك جميع الفوائد . وحصر مادفع نقدا منك للاهالى مجردا من كل فائدة . ويقسط ذلك على عشر سنوات ، يستثنى منها السنين التى يهيف فيها الزرع فاذا وافقت على ذلك بكتابة يمكننى أن أساعدك ، فقبل الخواجا بغاية الامتنان هذه التسوية . وعلى ذلك ردت الاطيان لاصحابها وتقسط الدين بالكيفية السابقة الذكر ووفيت الاقساط من المحصولات ففرحت الاهالى فرحا عظيما ، وأصبح مركز قلوصنا أغنى مراكز جميع المديريات وترقى بعد ذلك أبو سلطان الى وكالة مديرية بنى سويف ثم مديرا لروضة البحرين (أعنى مديريتى الغربية والمنوفية) وأظهر كفاءة عظيمة جدا . وأخيرا عين فى عهد الخديوى اسماعيل ، حاكما عاما للصعيد ، ولمع نجمه لمعانا هائلا إذ ذاك .

أعماله العظيمة

ومن أعماله العظيمة انى سألته ذات يوم وكنت وقتها مستخدما معه بوظيفة معاون بالدايرة السنية قائلا متى يرحم الفلاح من السخرة القاسية هذه والكرباج ؟ فقال وهل أنت تحب أن يعفى الفلاح من ذلك ؟ فقلت له على الفور ، هذا عمل وحشى ! وكل انسان فى قلبه شىء من الرحمة طبعا يود ذلك من صميم فؤاده . ففرح جدا لسماعه

هذه العبارة منى وأظهر سرورا عظيما وازدادت محبتى فى قلبه ، ولكنه لم يفه بكلمة بل ظل يحادثنى فى أمور أخرى ، وغض النظر عن اجابتى . .

مضت الأيام وتغيرت الأحوال، وطلبت دول أوروبا تشكيل نظارة مختلطة ، وتقيدت أعمال الحكومة بهذه النظارة المسؤولة ، وحينذاك دعانى المرحوم سلطان باشا وقال لى : لقد آن الاوان الذى تحقق فيه بغيتك فى الغاء السخرة وابطال الكرباج ! تعالى معى نقابل نوبار باشا رئيس النظارة فتوجهنا سويا وعرض الباشا مدى الضرر العائد من السخرة وأنه فى الامكان دفع الاجور . ففرح نوبار باشا من هذا الاقتراح وقال له أرجوك أن تبلغ اقتراحك هذا أيضا الى السير ريفرس ولسن ناظر المالية وأقره فى الحال. !

كيف مجهنا فى ابطال الكرباج

ثم عرض على نوبار باشا أشياء أخرى كثيرة منها ابطال الكرباج ومنها الغاء العوائد الشخصية . وعوائد أخرى كثيرة ضربت على الاهالى ظلما وعدوانا . فقال له نوبار باشا أنا موافق على الغاء كل ذلك . ولكنى أريد منك أن تعرض هذا على السير ريفوس ولسن ناظر المالية لان ذلك من اختصاصاته ، فتوجهنا فى الحال لجناب السير ريفرس ولسن وكنت أنا ترجمانا لحال المرحوم سلطان باشا . فبعرض كل ذلك عليه قبله . وأمر بتنفيذه فور

فتحقق كل ما تمنيناه، وكان ذلك يوم سرور عظيم لنا وفوز باهر للامة المصرية

عطفه على الفقراء

وكان المرحوم سلطان باشا يتصدق على الفقراء كثيرا ، فكانت فى بلدته زاوية للأموات مضيفة للفقراء والغرباء مفتوحة الأبواب لكل من أراد أن يأكل أو يشرب ومثلها بالمنيا ، ومصر . هذا بخلاف مرتبات سنوية تصرف للجامع الأزهر الشريف ومثلها ترسل لمكة المكرمة ولعائلات عريقة أخنى عليها الدهر . وهذه التصفات

العالية والاخلاق الكريمة ، لم تتعد شخصه، فانه من عائلة عددها كبير جدا ولكنه كان هو زهرتها الوحيدة التى يعطر أريجها العالمين

مرضه الاخير

وأذكر أنه لما مرض المرض الأخير ، أشار عليه الاطباء بالسفر الى أوروبا فسافر وكان إذ ذاك رئيس مجلس شورى القوانين ، وكان معه معية تليق بقدره حيث كان فى صحبته شيخ من الأزهر ، عظيم القدر اسمه الشيخ قراعه (وهو الذى كان أخيرا مفتيا للديار المصرية) ومملوك اسمه على ، وترجمان اسمه موسى بك شكرى فاشتد المرض عليه بأوروبا ، فبحث عنى فى الجهات التى يعرف أنى الفت السفر اليها الى أن عثر بى فى جنيف . فأرسل الى تلغرافا يقول فيه أن المرض اشتد عليه وأنه يريد أن نكون معا تم شفعه بآخر يرجونى فيه انتظاره فى جنيف ، مع أنى كنت اعتزم التوجه اليه فلما رأيته حزنت حزنا شديدا ، لأنى وجدت حالته لاتستوجب الاطمئنان .

وكان أول ماعملته أن دعوت الاطباء المشهورين فى كلية جنيف ، وعملت « كونصلتو » ، وطبعا كان الحديث بالفرنسية التى يجهلها . وقد تبين أن مرضه هو السرطان . وأن أيامه فى الحياة معدودة . وطلب منى الاطباء نصيحته بالسفر لبلاده حتى يقضى أيام حياته الأخيرة بين عائلته . فكنت أسمع هذه الالفاظ وأشعر أنها صواعق تمطر على رأسى . وكان وجهى رغم تجلدى يمتقع — ، وأدرك المرحوم أن حالته تنذر بالخطر . وبعد انصراف الاطباء سألنى عما قالوه ، فقلت له وأنا رابط الجأش . أنهم قالوا إن الاطباء المصريين مخطئون ، لأنهم أشاروا بحضوركم لأوربا لأن هواء مصر أحسن من هواء أوربا — وقالوا حتى لايتمكن المرض يجب التعجيل بالسفر حالا ، فضحك رحمه الله ضحكة المستهزىء وقال لى وهل نغش أنفسنا حتى فى الموت ؟

ثم أردف ذلك بقوله وهل أنت تحب مرافقتى اذا عزمت على العودة لمصر ؟ فقلت نعم هذا لايحتاج الى سؤال! فقال قد حققت أملى فيك وزيادة. وعلى ذلك قررت

السفر فى اليوم الثانى وقمنا بالفعل متنقلين من بلد لأخرى على قدر ما كانت تسمح قوة الباشا للسفر إلى أن وصلنا بلدة جراتز ، وكانت تبعد عن تريستا خمس ساعات ، فمضينا تلك الليلة فى لوكاندة اسمها (الفيئت أوتل) وقد لاحظت على الباشا فى تلك الليلة انشراحا لم أتعوده فيه من قبل — فسررت وقلت ربما أن الله سبحانه وتعالى أخاف ظنون الاطباء على أن سرورى وفرحى لم يدوما كثيرا — لأن المرحوم قضى فى فجر تلك الليلة ولا تسأل عن مدى حزنى خصوصا وأنى لم أر فى حياتى من مات أمامى إلا فى هذه الليلة . وظللت برهة وانا فى حالة غيبوبة لا أدرى شيئا ، وأخيرا تيقظت ، وتذكرت أن على واجبا عظيما نحو فقيد الوطن ، وصديقى الحميم يجب على القيام به ، كفأول مافعلته أن دعوت الاطباء وطلبت تحنيط الجثة حتى أنقلها لمصر ثم كتبت عنه بالجرائد الأوربية ما كان جديرا به ووفيته حقه وبعد ذلك أبرقت للخديوى توفيق اخبره بوفاته ، وأننى حاضر بالجثة بعد تحنيطها لمصر ، كتبت هذا وكنت أخشى جدا أن عوامل الحسد الشديد فى قلوب خصومه من الجراكسة والاتراك تحول دون ذلك ، ولكن منزلة المرحوم سلطان باشا حققت كل رغباتنا

ثم أبرقت للمرحوم نوبار باشا بالنبأ ، فورد لى تلغراف من الخديوى يشكرنى فيه على جهودى ويأمرنى بأن اقوم بالجثة الى مصر — وتلغراف آخر من المرحوم نوبار باشا يقول فيه أنه فى هذه الظروف قد أكون فى حاجة لمصروفات لاتمام المطلوب لذلك أمر بلوم باشا وكيل المالية ، وكان وقتها بالاجازة فى فينا ، أن يكون تحت أمرى يمدنى بما أريد

وفعلا حضر الى بلوم باشا واخذت منه ثلثمائة جنيه لأنه كان معى مبلغ آخر لابأس به ، وتركت مصيفى بأوروبا ، وتركت الحمامات التى كنت قد قررتها لنفسى وتركت كل علاج لكى اؤدى واجبى الأخير نحو البطل العظيم ، الجدير بمحبة وطنه وبنيه والذى كنت اعتبره والدى

الوصول الى القاهرة

قمت لمصر وكلما تخيلت الفقيد امامى يشتد حزنى وتفيض عيونى ادمعا حتى وصلنا

ميناء الاسكندرية حيث كانت الحكومة كأمر الخديوى ونوبار باشا . قد أعدت مشهداً رسمياً فخما لائقاً بقدره واشترك فيه أفراد عائلة الفقيد كبيراً وصغيراً ، ولكن هل أحد من هؤلاء القوم تقدم نحوى وسألنى عما جرى له . أو استفسر منى عن أيامه الاخيرة وأقواله ؟ لا .. لا .. لا شىء من ذلك أبداً . ولا يزال هذا موضع دهشتى للآن . ولكنى عملت ما هو واجب على نحو الفقيد الكريم

تحاريق النيل

وفى عهد الخديوى توفيق حدث تحاريق بالنيل لم يسبق له مثيل فى السنوات الماضية فكتبت وزارة الأشغال للدائرة السنية تعلمها أنه غير متيسر نظراً الى ما وصلت اليه حالة النيل من الانخفاض أن تزرع الدائرة السنية زراعتها الصيفية سواء كان قطناً أو قصباً فقامت وقعدت لهذا الخبر ، وكررت الالحاح على وزارة الأشغال لإيجاد طريقة تسمح بزراعة الصيفى

(صاحب المذكرات فى صباه عند بدء توليه المناصب بالدائرة السنية)

إذ بدون ذلك . تسير الدايرة فى طريق الافلاس . وبعد أخذ ورد طويلين قررت وزارة الاشغال أن تسمح للدايرة السنية بزرع الصيفى بالشروط الآتية

(١) بما أن المياه فى هذا العام ستعطى بالميزان لسبب قلتها ، فيجب الحرص عليها والمحافظة على استعمالها فى الغرض المقصود ، حتى يتيسر الوصول لنتيجة مرضية

(٢) يجب أن تختار الدايرة السنية موظفاً ذا نفوذ ونشاط ويقظة ليكون ملازماً لمفتش الرى فى توزيع المياه ومراقبة استخدامها كارشادات المفتش (وكان المفتش إذ ذاك رجلا عالماً عظيما من علماء هندسة الرى وهو المستر براون الذى كان وكيلا له زمناً طويلا فى تفتيش الرى المرحوم اسماعيل سرى باشا) فقبلت الدائرة هذه الشروط واختارتنى لهذه المأمورية وكتبت لى خطاباً رسمياً من مجلس الادارة يلقى فيه مقاليد هذا الأمر على عاتقى . وبعد أن استلمت الخطاب المذكور دعانى ناظر الدائرة السنية وهو المرحوم فريد باشا وقال لى ، انك وإن كنت استلمت خطابا من المجلس يلقى على عهدتك تنفيذ أمر مفتش الرى ، إلا انى بطريقة خاصة أحب أن لاتنفذ له أمراً ، وان تعاكسه فى كل اعماله ، فدهشت وقلت له . كيف ذلك ياباشا والمسألة موكولة إلى بخطاب رسمى ؟ فهل تريد أن أفعل مايوقعنى فى المسؤولية ؟ اذا كان غرضك هكذا فارجو أن تنتخب آخر بدلا عنى فخاف وداخلته الوساوس خشية أن أنقل كلامه للمجلس وأخيراً قال لا يصلح خلافك لهذا الأمر المهم . وكلامى هذا كان على سبيل الامتحان . . !

وأخيراً قمت بعملى ولازمت المفتش ليلا ونهاراً وأديت له خير المعاونات وكنت لا أنام الليل ولا ارتاح النهار حتى حصلنا على النتيجة المرغوبة . وكنت قاسياً جداً على المستخدمين الذين يهملون تنفيذ التعليمات ، فكانت نتيجة أعمالنا نجاحا ، فاق كثيراً فى نتائجه السنوات السابقة . وكانت المياه فائضة فيضانا عظيما ، مما أوجب ارتياح وزارة الأشغال ، وعلى الأخص المستر براون مفتش الرى الذى كتب لوزارة الاشغال خطابا يقول فيه أن النتائج الباهرة التى حصلنا عليها فى نجاح زراعة الدايرة السنية هذا العام . انما يعود الفضل فيها الى (قلينى بك) الذى سهر بيقظة تامة على تنفيذ ارشادات الهندسة بدون أى تهاون ، مما يستوجب تهنئته وشكره . ولا أخفى على الوزارة أن تعليماتى هذه سبق أن أعطيتها لعمال الدائرة السنية فى السنوات

الماضية وكانت هناك فيضانات عظيمة . ونظراً لعدم قيامهم بتنفيذها لم تأت مزروعات الدائرة السنية بفائدة تذكر بجانب فوائد هذا العام

وعلى أثر هذا الخطاب ، حررت نظارة الأشغال خطابين أحدهما لى تهنئنى فيه وتشكرنى على ماقمت به من الاعمال الباهرة فى سنة تحاريق مثل هذه السنة ، التى أتت بفوائد لاتقدر والثانى لمجلس الدائرة السنية ، كله ثناء عاطر على ذاكرة فيه هذه المجهودات العظيمة وما كان من نتائجها السالفة الذكر

تصرفات عجيبة !

غضب لذلك ناظر الدائرة السنية غضبا شديداً على اننى كنت أنتظر ، وأنا الممثل له فى هذه الأعمال ، أن يبتهج قلبه فرحا وسروراً عند مايسمع الثناء على موظف كان يمثله ولكن للاسف ترجم الأمر بخلاف ذلك . وقال أن قلينى بك يسعى للاتحاد بالانجليز لغرض واحد وهو عزلى من وظيفتى ليتولاها — كلام غريب فى بابه . وفكرة سخيفة ، لم أكن انتظر أن تصدر من رئيس مصلحة مثله ، ولما رأيت التنافر يزداد بينى وبينه لهذا السبب دخلت عليه يوماً وقلت له ، لأجل أن أريح ضميرك . وأبعد عنك وساوسك ، أرجوك أن تعقد المجلس وتطلب منه احالتى على المعاش ! . ففرح لهذا الخبر كثيراً وطلب ذلك من زميليه أعضاء المجلس وهما مسيو جلوساك ومسيو هاملتون لانج وقال لهما ان قلينى بك التمس منى ذلك بالحاح فاستغربا هذا الخبر . وقالا له . كيف يقوم باجل الخدم ونكافئه بالاحالة على المعاش ؛ لابد أنك غضبته ياباشا . فدعه ولنا معه شأن وستكون علاقته مباشرة بنا معا . وأفضى إلى شاكر باشا الذى كان وكيلا للدائرة السنية بسر الأمر . وقال له الان سيعلم قلينى بك خطتى نحوه ، وعطف المجلس عليه فيكون موقفى أمامه صعبا . فاحب أن تزيل من ذهنه كل أثر وتستدعيه اليك لتتفاهم ، تخاطبنى فى ذلك شاكر باشا فقلت له لو علمت ماذا قال لى عند توجهى لهذه المأمورية ، وعلمت كيف قابل خطاب الثناء على مجهوداتى . لعذرتنى اذا كنت قلت له لا أريد البقاء فى الخدمة فطيب خاطرى شاكر باشا كثيراً ، وكان الرجل عظيما ووقوراً ، فاكتفينا بان قابلنا فريد باشا وتصالحنا ولكن

ظلت أعمالى مرتبطة بالمجلس مباشرة من يوم هذا الحادث .... !

غرور كاذب !

تلك إحدى المسائل التى حصلت منه . ومن نوادر نوبار اللطيفة عند ما كان رئيساً للوزارة ، انه كتب خطاباً لناظر الدائرة السنية (المرحوم فريد باشا) يأمره فيه ، بنقل دانينوس باشا من وظيفة ناظر أشوان الدائرة باسكندرية الى وظيفة وكالة الدائرة السنية بمصر ، وفريد باشا كان رجلا معروفا بالغرور، وظن الغرور يفلح مع أى شخص كان . فرد على دولة نوبار باشا بما يأتى « أفندم، تشرفت بورود أمركم القاضى بنقل دانينوس باشا الى وكالة الدائرة السنية بمصر ، ولما كانت مؤهلات هذا الباشا لاتسمح بتقليده هذه الوظيفة ، فأنا آسف من عدم امكانى تنفيذ هذا الامر » !!

فعندما وصل لدولة نوبار باشا هذا الخطاب ، كبر على دولته هذا الامر ورآه مجرداً عن اللياقة والادب والطاعة فعقد لوقته مجلس الوزراء وطرح عليه المسألة فتقرر بالاجماع عزل فريد باشا وتعيين شاكر باشا الذى كان وكيلا للدائرة السنية ناظراً لها بدلا عنه وتعيين دانينوس باشا وكيلا له ، وكتب نوبار باشا لفريد باشا يقول له فيه . « وصلتنى مكاتبتكم وحقاً ان الرجال الغير اكفاء لايليق تكليفهم بوظائف يعجزون عن اداء واجباتها ومن هذا القبيل رأى مجلس الوزراء عدم أهليتكم للمركز الذى تشغلونه وقرر عزلكم وتعيين شاكر بدلا عنكم ودانينوس باشا وكيلا له وهذا اخطار لحضرتكم ... » !!

نفوذ كرومر وسلطانه

ومما حصل أيضا فى عهد الخديوى توفيق ، أن اللورد كرومر احتكر النفوذ المطلق فى الحكومة المصرية ، فكان فى وقت من الاوقات ، الحاكم الفعلى الأكيد ، والآمر الناهى ، مما جعل هيئة النظار فى حكم العدم . ولما كان اذ ذاك رئيس النظار هو المرحوم نوبار باشا الذى كان ممتلئاً علماً وذكاء وعظمة وكبرياء ، عز عليه أن يكون ناظراً ذليلا والذى كانت له صداقة تامة ببعض كبار السياسيين العظام فى أوربا ، وكانت له منزلة عظمى بينهم ، نالها عن كفاءة وجدارة فقد قصد الى لندن، وتقابل مع كبار رجالها ،

وأخص بالذكر منهم اللورد سالسبرى والمستر غلادستون ، على ما أتذكر — وعرض عليهما الامر . وقال لايمكن لأى نظارة مصرية أن تقوم بواجبها طالما أن اللورد كرومر مسيطر على جميع المصالح الحكومية . والاتفاق بينه وبين النظارة ليس متيسراً ، لانه يريد أن تكون النظارة آلة فى يده — فان أرادت الحكومة البريطانية أن تسير معنا باخلاص . فنرجو أن تسحب اللورد كرومر وتستعيضه بمن تشاء خلافه وظل يقنعهم بضرورة تنفيذ ذلك الى أن اقتنعوا . فقالوا له ، اذا كان الخديوى متفقاً معك على ذلك فنحن مستعدين لسحب كرومر وتعيين خلافه

وكان المرحوم نوبار باشا يعلم أن الخديوى متململ من أعمال اللورد كرومر الذى أفقده كل نفوذه ، وانه يود الخلاص منه — فاجاب نوبار نعم ، ان الخديوى متفق معى على هذا . فارسلت الحكومة برقية تستفهم فيها من الخديوى، فكان جواب سموه خذلانا لنوبار باشا ، حيث قال انه راض عنه تمام الرضا وبذلك فشلت مساعى نوبار باشا وخجل الرجل خجلا كبيراً ، ولكنه اجتمل بصبر هذه الصدمة المريرة وعاد الى مصر ، وبعد عودته بأيام قلائل ساد الفتور بينه وبين اللورد كرومر . وقد لاحظ ذلك الخديوى ، فاراد أن يكسب كرومر وأن يخرج الحالة من هذا المأزق ، فأصدر قراراً بعزل نوبار باشا . فكان هذا أكبر فوز لكرومر . ولكن نوبار وهو صاحب الدهاء العظيم ، لم يمكث طويلا بعيداً عن الحكومة ، بل عرف كيف يزيل ما بنفس كرومر من جهته حتى استدعاه ثانية لرئاسة النظارة ... !

عالم اله عظيم

وهنا كرر القول ، بأن رفاعه بك الطهطاوى وعلى باشا مبارك كانا الفردين الوحيدين اللذين قاما بنهضة العلم فى مصر ، وعملا على نشر المدارس ، وتثقيف العقول ودوام اشرافهما على التعليم ، فضلا عن قيامهما بتأليف جملة كتب لتنوير الشعب . وتربيتهما لكثيرين من الطلاب الذين فاقوا الأقران فى جميع أعمالهم معروفة كالمرحوم قدرى باشا الذى له فضل عظيم على العلم والقانون لا يمحى . ومجدى باشا ومحمد عثمان جلال بك ومصطفى بك رضوان وغيرهم مما لا تعى ذاكرتى أسماءهم . وكان يجدر بمصر تخليداً لذكر هذين البطلين العظيمين أن تنصب لهما النصب التذكارية . على أننى لا

أنكر أن الذى شجعهما على هذه الاعمال الجليلة وساعدهما بالمال الوافر والفكر الثاقب للوصول الى تلك الغاية هو الخديوى اسماعيل إذ يرجع الفضل كله اليه لأنه كان مولعا بالعلم وذويه ومجداً فى تعميمه بالبلاد معضداً له بكل الوسائل

ذكريات مطوية

حفلة ساهرة رسمية

ومن الحوادث التى وقعت فى ذلك العهد وكان لها فى ابان حدوثها دوى فى دوائر الحكومة ، حادث له من الدلائل الجمة فى الاعتداد بالنفس ، والاستقلال فى الرأى ، والأنفة والاباء ، ومعانى العزة والكرامة نورده فيما يلى كما حدث :

عند ما تولى المرحوم بطرس غالى باشا منصب نظارة الخارجية ، زين له بعض المقربين اليه إحياء حفلة راقصة بمنزله يدعو اليها رجال السلك السياسى والنظراء والوزراء وبعض الأصدقاء . وكان الضوء الكهربائى فى ذلك الوقت لم يعم العاصمة أو ينتشر فيها . فاشار عليه البعض أنه لكى تستكمل الحفلة التى يقيمها وسائل بهجتها وأسباب فخامتها ، يجب أن تضاء بنور الكهرباء . وبما أنه يوجد بدار « الضربخانة » المصرية — لصك النقود — « وابور » لتوليد الكهرباء ، يستطيع اذا أحضره أن يسد هذا النقص ، ويؤدى هذه المهمة ولما كانت « الضربخانة » تتبع المصلحة التى أديرها أنا بالمالية ، فقد كان تحقيقها عسيراً

فانبرى المرحوم حنا بك باخوم وكان وقتئذ موظفاً بوزارة الحقانية ، وقال أنه فى امكانه تذليل هذه العقبة — اعتقاداً منه بأن صداقته لمدير الضربخانة « أحمد بك أسعد » تكفل له الحصول على « وابور » الكهرباء بغير علمى ، فعهد بطرس باشا اليه باتمام هذا الامر وفعلا توجه حنا بك إلى أسعد بك وطلب منه تنفيذ هذه المهمة ، فلم يسع أسعد إلا رفضها قائلا :

— « انه ليس فى استطاعتى أن أتصرف فى شىء على الاطلاق بدون تلقى أوامر

رئيسى قلينى باشا بصفته المدير العام التابعة له هذه المصلحة . فأستاذنه فان قبل فليأمرنى وأنا أطيع وأنفذ ... »

فحين ذاك لم يجد حنا بك باخوم مناصاً من أن يطلب اليه الاستئذان بمعرفته وعلى هذا تحدث الى تليفونياً وبسط لى تفاصيل مادار بينهما من الحديث ، وطلب منى أن آمره بما يجب عمله . فأجبته بان مثل هذه الاحوال لا يمكننى ان أتصرف فيها بالتليفون ، وطلبت اليه أن يرسل لى خطاباً بما جرى بينهما وأنا أتصرف فيه بما يقتضيه الامر ... ولكننى لا أخفى القارىء ، غضبت لهذا التصرف غضبا شديداً

ومن الطبيعى أنى دهشت وبلغ بى التأثير مبلغا كبيرا لتدخل موظفين خارجين عن دائرة وزارة المالية ، فى شؤون مصلحة أديرها ، ولا يمتون اليها بصلة من صلات العمل ، وأعتبرت أن ذلك التدخل لونا من التحدى والاستهانة بالحقوق ، فضلا عما ينجم عنه من إضطراب الاعمال والاخلال بالنظام وعلى هذا ما كدت أتلقى خطاب مدير « الضربخانة » حتى عرضته على جناب المستر دوكنس الذى كان وقتئذ يشغل منصب وكيل وزارة المالية ، وقلت له إن هذا التصرف يوجب الفوضى فى سير الاعمال ، وبث روح التمرد والنزوع الى العصيان وعدم الامتثال لاوامر الرؤساء . وبناء على هذا الحديث تم الاتفاق بيننا على تقديم حنا بك باخوم الى مجلس التأديب ، وأستقر الرأى على الكتابة لبطرس باشا منبهينه الى ما فى هذا التصرف من الاخلال بسير الاعمال مما لا يصح العودة اليه فى مستقبل الايام .

ولقد أحدث هذا القرار ضجة هائلة فى الدوائر الحكومية ، حتى أن المرحوم ابراهيم باشا فؤاد المناسترلى وزير الحقانية فى وقتها ، زارنى فى مكتبى ، ورجانى أن أعمل بكل ما وسعنى الجهد على صرف النظر عن محاكمة حنا بك باخوم ، بسبب هذه المسئلة . وبعد أخذ ورد ، ورجاء وشفاعات ، قبلت ذلك مرضاة له ، على شرط أن يقبل وكيل المالية بذلك أولا . فقال لى المناسترلى باشا انه قابله قبل أن يقابلنى ورجاه نفس هذا الرجاء ، فاحال الامر على قائلا انه متعلق بى ، فاذا قبلت فلا أعتراض منه على قبولى . وحينئذ توجهت لمقابلة المستر دوكنس وقلت له . انى مراعاة لخاطر وزير الحقانية ، لا ارى مانعا من صرف النظر عن محاكمة حنا بك باخوم .. فوافق

على ذلك ، وقال معقبا على موافقته . انى أعتقـــد بعد ما أخذ هذا الامر كل هذه الاهمية ، وما حدث حوله من الضجة فى الدوائر الحكومية ، انه لن يتجاسر بعد الان أحد من الموظفين، صغيراً كان أم كبيرا. على التدخل فى شؤون غيره .. وبذلك أسدل الستار على هذا الحادث ! ...

حرية الرأى

كذلك أذكر الحادث الاتى ومنه يتبين المعنى الصحيح لتقديس حرية الرأى

كان لطيف بك ســـليم مديراً للفيوم فى عهد الإحتلال الانكليزى ، وكان أحد الذين تشبعت نفوسهم بالوطنية ، وأشربت روح الإستقلال والحرية فكان أبى النفس عيوفا ، ذا أنف وكبرياء ، معتدا بنفسه ، لا يطيق احتمال ملاحظات المفتشين الانكليز الذين كانوا يطوفون على المديريات حينا بعد حين للتفتيش على سير الأعمال. وتصادف أن إحتك به أحد هؤلاء المفتشين ، وحدثت بينهما مشادة عنيفة استقال على أثرها من منصبه ، وكان ذلك فى عهد رئاسة المغفور له الوزير العظيم رياض باشا — طيب الله ثراه — فلما عرض المدير على أنظار الوزير الكبير استقالته رجاه أن يعفيه من الخدمة ، لرغبته فى البعد عنها ، لأن نفسه لا تقبل الضيم ، ولا ترضخ للمذلة ، وأردف كلامه بقوله

« وحيث أنى رجل فقير، فانى أود استبدال معاشى بأراض زراعية حتى يمكننى أن استغل نشاطى فيها . وأعيش من إيرادها .. انما رجو دولتكم أن تأمروا بملاحظتى بعين الرعاية فى تثمين الأرض التى يقع عليها الاختيار »

فعهد رياض باشا الى مدير مصلحة الأملاك الاميرية القيام بهذا الأمر ، مع ملاحظة لطيف بك بشىء من المعـــاونة ، فوقع الاختيار على القطعة التى يريدها للاستبدال وأبدى عند تثمينها كثير من المجاملة والتسامح . على ان بعض الناس أخذوا ينشرون الأراجيف ويروجون الإشاعات. زاعمين ان مدير مصلحة الأملاك فعل ما فعل لنفع خاص حصل عليه من لطيف بك . وأخذت دائرة الأراجيف تتسع

وحملتها تتفاقم حتى بلغت الى مسامع بعض كبار الانجليز المسؤولين . وكان مروجها فى الحقيقة رجل اسمه أرمولى بك . الذى كان يشغل منصب تشريفاتى برياسة مجلس النظار ، ولعل من بواعث الغرابة ان لطيف بك سليم نفسه حين سئل عن نصيب هذه الأقاويل من الحقيقة ، لم يزد بغير ان أمن عليها.. فطلب الانكليز من رياض باشا محاكمة مدير لمصلحة المذكور أمام مجلس التأديب . فامر بذلك على الرغم من عدم إرتياحه اليه . لاعتقاده الوثيق بان الدسائس قد لعبت دورها بمهارة فى هذه المسئلة .. ولما كنت أنا العضو الوطنى الوحيد فى مجلس التاديب ، وباقى الأعضاء هم من الانكليز والفرنسيين فقد استدعانى . وابتدرنى بقوله

— « أحب ان تكون صادقا فى عملك ، وعادلا فى حكمك ، من غير أن تتأثر بالآخرين فأجبته بانى سوف أكون جديراً بثقته بى ، وعند حسن ظنه ، حتى ولو اقتضتنى الضرورة اعتزال منصبى ، مادام فى ذلك راحة للضمير وأرضاء للحق

كان رئيس مجلس التأديب فى ذلك الوقت هو اللورد ملنر وكان فى منصب وكيل وزارة المالية . فلاحظت بعد ان قطعنا أشواطا فى نظر الدعوى ، وبعـــد التحريات والتحقيقات الدقيقة انه لم يثبت شىء من التهم المنسوبة إلى مدير الأملاك . لا بالحجة ولا بالدليل والبرهان — غير ان ما كان يبديه رئيس المجلس من التحامل والاستبداد بالرأى ومحاولته املاء ارادته على بقية الأعضاء ، جعلتنى أنبرى له مبديا ملاحظاتى على هذه الروح التى تسود المحاكمة حتى لقد قلت له :

— هل نحن هنا مرؤسين لوكيل وزارة المالية . ويجب أن نسير وفق رغباته ؟ أم نحن أعضاء هيئة لنا فيها ذات الحقوق التى تخولها القوانين لرئيسنا ؟ ؟

فأجاب .

— بل لكم هذه الحقوق ، وتلك الحريات فى ابداء الرأى !

قلت .

— إذن يجب الاذعان لما نراه ، كما هو الواجب ..

وهنا أخذت آراؤنا تنســـاب إلى طريقها الطبيعى لتوضع فى نصابها الصحيح ، ولتأخذ مكانها من الاعتبار ، وأخذ رئيس المجلس يحترم أقوال هيئة المجلس ويجل آراءهم محلها المختار من الوقار

ومن غرائب الصدف بعد هذا الحديث . ان قابل المرحوم المسيو روكاسيرا الذى كان مديراً لقسم قضايا المالية وعضو الهيئة التاديبية أحد الوزراء وقال له .

— اليوم حدثت مشادة عنيفة بين قلينى بك واللورد ملنر فى أثناء انعقاد المجلس وأنا أعتقد ان هذا الامر قد يفضى إلى خروج قلينى بك من خدمة الحكومة . فلما تقابلت مع هذا الوزير واستوضحنى جلية الأمر ، شرحت له تفاصيل ماحدث وعقبت على ذلك بقولى .

إننى فعلت ما فعلته مدفوعا بما خوله لى القانون من الحقوق ولست أبالى الوظيفة ما دمت فخور الضمير ، بما أديت من الواجبات

وسارت مراحل التحقيق أشواطا . حتى أشرفت على نهايته . فكنت أنا والمسيو روكاسيرا العضوين الوحيدين المقتنعين ببراءة مدير المصلحة مما نسب اليه . وأعلنا هذا الرأى . ولكن باقى الأعضاء شايعوا رئيس المجلس فيما يراه وقرروا إدانته . وذلك بإيقافه عن العمل ثلاثة أشهر بدون مرتب

ولما كان قرار المجلس لا ينفذ إلا اذا صدق الوزير عليه فقد رفع اليه توطئة التصديق عليه . ولكن الوزير رفض التصديق عليه قائلا

— لابد لى ان أسمع آراء كل عضو فى المجلس

وفعلا استدعانا جميعا . وسمع أقوالنا . فلم يجد ما يبرر هذا الحكم فقال

— اننى غير مقتنع للآن بصواب هذا الحكم ولابد للمسئلة من احالتها على المجلس المخصوص

وقال . ولو انى اخرجت من المجلس المخصوص اللورد فانى واثق من ان ليجريل سيصدق على الحكم ولكنى قد قمت بالواجب وارضيت ذمتى ....

وعلى ذلك قد امرت بعزل اللورد ملنر من المجلس المخصوص لانه لايصح أن يكون رئيس المجلس الاستئنافى وحول الامر الى المجلس المخصوص الذى كان يرأسه المسيو ليجريل الذى كان وقتها يشغل منصب النائب العام فصدق على الحكم الذى أصدره مجلس التاديب القاضى بايقاف هذا المدير ثلاثة أشهر بدون مرتب ونقله إلى وزارة أخرى ...

ولما انتهت المسألة عند هذا الحد ، تقابل معى اللورد ملنر ، وخاطبنى قائلا : انك قد كبرت فى نظرى ، لموقفك المشرف . فقلت له جواباً على ذلك .

— انى فعلت مافعلت لأنى أعرف مع من أتكلم ، وصفاته فى الحسنات والأنصاف مشهورة

فضحك اللورد ملنر ملء شدقيه ، وقال وقد شاع السرور على أساريره .

— أؤكد لك انى لم أقدر شخصاً من أعضاء الهيئة تقديرى لك . وقد كبرت فى نظرى . وأنت فى موقف المعارض لى . وتجلت لى فى شخصك ، ما كنت أعتقده فيك .. ومد إلى يده ، وهو يصافحنى بحرارة ، قائلا فى تأثر عميق .

— نحن أصدقاء !!

تلاعب الكبار بالصغار !

كان يتبع مصلحة الأموال الغير مقررة التى كنت أديرها جملة مصالح أخرى ، منها « مصلحة الدخوليات » كما ذكرت سالفاً وهى التى كان يوكل اليها جباية الضرائب عن كل مايدخل مدينة القاهرة من البضائع وكان فى هذه المصلحة عدد كبير من الموظفين . وكان يوجد بها ١٨٠ مكتب تليفون . و ٤٠ مكتب لتحصيل الضرائب فى دائرة المدينة . كما يتبعها « كردون » يحرس أطراف المدينة وضواحيها مكون من ١٢٠٠ ملاحظ لهم زى رسمى . فضلا عن عدد عظيم من الكتاب والصيارف عدا المأمورين والمفتشين والمعاونين ونحو ذلك

وقد حدث إن أحد المفتشين ، وكان يدعى « مصطفى أفندى حسن » وكان من خيرة موظفى المصلحة ، وأنشطهم عملا ، وأكثرهم كفاية ، تقدم إلى يوماً ، ورجانى أن اساعده وأسدى اليه مكرمة ، وذلك بتوظيف شخص ادعى أنه من أقربائه ، ولو فى وظيفة قبانى بسيط ، فلم أر بأسا فى أن أستجيب لرجائه ، معاونة منى له . وفعلا أمرت باشكاتب المصلحة أو مدير المستخدمين بتعيينه بمرتب ثلاثة جنيهات فى الشهر

ومرت فترة من الزمن على هذا الامر ، إلى أن وفد إلى الوزارة فى ذات يوم شيخ كهل طاعن فى السن ، على وجهه سيمات المهابة والوقار ، بلحية بيضاء غزيرة الشعر ،

يلبس « الجبة والقفطان » وعلى رأسه طربوش « وكوفية » من الحرير وطلب من الحاجب أن يستأذن فى الدخول الى ، فأمرت له بذلك . ولما مثل بين يدى ، أمرته بالجلوس ، وأنا أشير الى أحد المقاعد . فقال لا يصح أن أجلس فى حضرتك — قلت اجلس ، وأعلم أن الطاعة خير من الادب ... فلما أستوى فى مقعده ، سألته من أنت ؟؟ فأجابنى « أنا ياسيدى كنت رئيساً للطهاة بالقصر العالى (قصر والدة الخديوى العظيم اسماعيل) ولم أرزق فى حياتى الا بفتاة واحدة . فما كان من مصطفى أفندى حسن المفتش الا أن أستهواها ، وأفسد عليها حياة الطهر والعفاف ، وأستجلب لها زوجاً صورياً من الطريق ، ليتخذه ستاراً يختفى وراءه لقضاء مآربه الخسيسة — ومن بواعث الغرابة أنه التمس من سعادتكم تعيينه فى وظيفة قبانى ، ارضاء له — وكان فى كل مساء يحيى حفلات ساهرة ، يحضرها بعض أصدقائه ، فيظلوا طيلة ليلهم يرقصون ويسمرون ، ويجرعون كؤوس الخمر ، ... وظلت الحال سائرة على هذه الوتيرة ، بغير أن يتصل بعلمى شىء مع مساسه بشرفى ، ومع مايلحقنى من العار من جرائه ، نظرا لما هو عليه من الشرور التى أغرق فى أمواجها المصطخبة حياة ابنتى الطائشة فسألته ومن أين علمت بذلك ، هل أخبرتك أبنتك به ، فأجاب . نعم هى التى أخبرتنى بكل شىء . . وهنا أستحضرت الفتاة وسألتها عما يقوله والدها ، فاعترفت أمامى بكل شىء ، من غير زيادة ولا نقصان . فأمرتهما بالانتظار ، وأستحضرت زوجها الصورى « القبانى » ، فلما حضر سألته هل يعرف هذه السيدة ؟ (مشيرا الى زوجته الصورية) ؟! فقال . لا ياسيدى فقلت له اذن كيف تزوجت بها ... اليست زوجتك ؟ فاجاب آه لقد زوجونى بها من غير أن أراها !! .. فقلت له . حضرتك عامل « برفان » برضاك !.. ثم أستحضرت مأذونا وأمرته بأن يكتب وثيقة الطلاق فى الحال وأمرت بطرده من وظيفته ، وسلمت الفتاة لأبيها وقلت ياعم خذ أبنتك وأذهب لحال سبيلك ، وأسهر على مراقبتها ....

ومن لطائف ما حدث قبيل مغادرة الرجل وابنته لغرفتى ، أن التفتت الى وفى نظرة استعطاف وتوسل . ولهجة رجاء وتذلل قالت لى

— أرجوك يا سعادة الباشا وحياة رأسك ان لا تؤذى مصطفى افندى،

* * *

وعقدت بعد ذلك مجلس التأديب فى الحال ، وتوليت رياسته بنفسى وقررت محاكمة مصطفى افندى حسن ، وذلك بانزال مرتبه من ٢٤ جنيهاً فى الشهر الى ١٢ جنيه — وبذلك وضعنا العدالة فى نصابها واقتصصنا من هذا المذنب الوضيع الذى يفسد أخلاق السذج من الفتيات وأعطينا درسا اليما مريرا لمن يسلكون هذا السبيل الملتوى وتحدثهم أنفسهم بالشرور والآثام ..

عصابات اللصوص

فى عهد توفيق

وأذكر من حوادث عصابات اللصوص فى عهد الخديوى توفيق حادثة أسردها على سبيل الفكاهة ، وهى انه انتشرت فى وقت من الأوقات عصابات اللصوص بالوجه القبلى وقد ساعد على انبثاثها وجود زراعات القصب والأذرة . وكان من بين هذه العصابات « منصر كبير » — كما يسميه العامة — اتخذ مقراً له زراعة قصب بجوار مدينة المنيا على مقربة من طريق عامة واستخدم بعض الأعوان لتجسس على المارين بهذا الطريق فيختارون من بينهم الأغنياء وحاملى البضائع وكل من يتوسمون انه يحمل غنيمة لهم . فينقض اللصوص عليهم ويسلبونهم ما يملكون بعد ان يوسعوهم ضربا وكنت إذ ذاك موظفا بوظيفة وكيل جفالك الدائرة السنية بالوجه القبلى . وكانت أعمال الدائرة السنية تشمل كثيرا من اختصاصات البلاد فى ذلك الوقت . فحضر لدى جمع كبير من عمد وأعيان البلاد شاكين اضطراب الأمن العام فى هذه الناحية من جراء انتشار هذه العصابات المسلحة فخابرت وقتها مدير المنيا المرحوم خليل باشا عفت . وأبلغته خلاصة هذا الأمر وطلبت منه عمل الإحتياطات اللازمة لضبط هذه العصابة الشريرة وإراحة الناس من مفاسدها . فاجابنى بخطاب رسمى قائلا : ان شكاوى العمد والأعيان من وجود عصابة اللصوص التى تعيث فى الأرض فساداً لا حقيقة لها . بل مجرد وهم . وعند وصول هذا الرد تصادف ان هذه العصابة قضت على أرواح بعض التجار المارين بهذا الطريق — فدهشت من جواب المدير — ورأيت انه

لابد من ابلاغ الأمر للمعية السنية ولوزير الداخلية . وكان إذ ذاك عبد القادر باشا حلمى وأوقفته على مادار بينى وبين المدير ولفت نظره الى ضرورة استئصال هذا الشر الذى أخل بالأمن العام فاهتم بالمسألة اهتماما شديدا وحضر شخصياً للمنيا وظهر له من التحريات التى عملت ان المدير مهمل اهمالا تاما فى واجباته . وحامت حوله شبهات كثيرة حتى قيل انه ضالع مع اللصوص ، وقد حصل الوزير على أمر عال بناء على قرار مجلس الوزراء بعزل هذا المدير واهتم ببحث مسألة اللصوص للوصول الى القبض عليهم فبينما التحريات كانت متجهة لهذا الغرض علم بذلك اللصوص فارسلوا زعيمهم مرتديا رداء شحاذ متوكئا على عصاه ودار حول القائمين بالتحقيق وكان يجرى على الطريق ليسترق منهم الحديث ويقول حسنة لله يا اسيادى ..!

فنهره أحد الكتبة قائلا . نحن فى هذا والا فى ذاك فالرجل الذى كان متواضعا متمسكنا زمجر كالاسد الكاسر ، وشتم الكاتب بحدة تشى بأنه ذو قوة كبرى وبأس عظيم !! وكنت اذ ذاك انا ألاحظ هذه الحركة عن كثب ...فداخلنى الشك من ان يكون هذا الشحاذ جاسوس اللصوص ! وأخبرت بذلك وزير الداخلية وقلت له يجب التشديد على هذا الرجل لربما نقف منه على الحقيقة فقال لى الوزير . اعمل كل مايتراءى لك . فامرت فى الحال بجلد الشحاذ المتنكر الذى قال لى أثناء الجلد متضرعا : ارحمنى وأنا أصرح لك بكل شىء ! فأمرت بوقف الجلد فاعترف بأنه شيخ «المنصر» وأن «المنصر» مؤلف من أربعين لصا من أنحاء مختلفة . وان أكثر المسروقات التى استولوا عليها مخبوءة تحت «كيمان» البلاد . وأنه يمكن استحضارها حالا -- وبينما كان يعترف ويصرح بهذه الوقائع كان كاتب التحقيق يدون هذا الاعتراف . وبعد أن أقر بما أقر وقع على المحضر بخاتمه وقدمه لوزير الداخلية الذى كان سروره عظيما جداً لاكتشاف هذه العصابة وأمر باستحضار كل المسروقات كما أمر بالقبض على جميع اللصوص واستحضارهم وأحال التحقيق على النيابة والقضاء لتسير قضيتهم فى مجراها الطبيعى . وكانت هذه المسألة خاتمة أعمال هذه الفئة الشريرة التى كان وجودها زمنا طويلا مبعث قلق لحفظة الأمن العام . وبعد ذلك عم السلام واستتب النظام واطمأن الاهالى على أرواحهم وأموالهم .

ويوجد نوادر من هذا القبيل لم نستحسن نشرها لأن فيها مساسا ببعض كبار

وم فمن باب اللياقة صرفنا نظرا عن ذكرها . . ولكن بما أن الشىء بالشىء يذكر ، فانى أذكر النادرة الطريفة الآتية ، لاسيما وانها وقعت فى الزمن الذى أوردت فيها الحادثة السالفة

كيف أطلقت لحيتى ولماذا ؟

لكل شىء سبب !

كان ذلك يوم أن كنت أشغل وظيفة وكيل ديوان جفالك قبلى بالدائرة السنية . وكان فى هذه الوظيفة سابقاً رشوان باشا ، -- وهو رجل كبير السن - مهيب الطلعة سامق العود ، عريض المنكبين وكانت شواربه الكبيرة ، بوجهه التركى المشرب بالحمرة ، تلقى فى قلوب الموظفين وأفراد الجمهور الخوف من بأسه ، والذعر من بطشه . فلما عينت أنا مكانه فى هذه الوظيفة ، كنت حدث السن ، فى فجر الحياة ، وريق الصبا الباكر . وكنت قبلها أشغل وظيفة « باشمعاون » ديوان جفالك سنية قبلى

صاحب المذكرات باللحية

فلما توليت هذه الوظيفة لاحظت -- لصغر سنى -- أن الموظفين الذين تحت ادارتى ينظرون الى نظرة استخفاف ذلك لان الفارق كان كبيراً بين شاب فى مستهل الحياة مثلى ، ورجل تركى له شوارب طويلة . وقامة فارعة . كانما الكبرياء

كانت تقاس فى ذلك العهـــد الغابر بالطول والعرض، وبالكم لا بالكيف... وهنا اضطررت تحت ضغط هذه الظروف الى ان أطلق لحيتى ، على مثال ما كان النبلاء الفرنسيون يفعلون فى الحاهم. لعل ذلك يوحى الى الموظفين وغيرهم بالهيبة التى تقتضيها الوظيفة الكبيرة التى أشغلها ولكن ذلك لم يكن ليجدى نفعا او يكون له الاثر المطلوب . اذ شعرت ان الموظفين ما برحوا سادرين فيما هم فيه من الاحساس بالفارق بين حداثتى وصغر سنى وبين ما كان عليه سلفى من التقدم فى العمر

كيف عاقبت أحد الموظفين

وفى ذات يوم حدث أن خالف أحد هؤلاء الموظفين تعليمات كنت قد أصدرتها بشأن أمر من الامور فما كان منى الا أن أمرت باستدعائه أمامى وبعد أن أشبعته تانيبا وتنديدا لاحظت أن التوبيخ لم يكن له التاثير المطلوب فامرت برفته وفصله من وظيفته فسارت بعد هذا الحادث الامور على خير ما يرام وشاعت فى قلوب الموظفين الرهبة التى كنت أبتغيها فلما تحقق ذلك حلقت لحيتى وعدت كما كنت فيما سلف من الزمن لان الباعث الذى حدا بى الى اطلاق اللحية قد أنعدم وزال فأزلت بزوال هذه الدوافع لحيتى !!

بينى وبين الخديوى توفيق

وبعد ذلك بفترة من الوقت أستدعانى سمو الخديوى توفيق فلما تشرفت بالمثول بين يديه أبتدرنى بقوله

— ماهذه المفارقات ياقلينى بك ، هل كنت فى فرنســـا ، تطلق لحيتك على هذه الصورة ، ثم تعود فتحلقها ...؟!! حدثنى عن حقيقة الامر ، فانى أود معرفته . فاجبت سموه ..

— الحقيقـــة يامولاى ، أننى كنت أشكو التهاباً جلدياً ، تسبب عنه ظهور «الحرارة» فى ذقنى — فما كان منى الا أن أطلقت لحيتى لأخفيها — أى أخفى «الحرارة» عن العيون..!

فضحك سموه قائلا ..

— ولكننى لا أرى لهذه «الحرارة» أثرا فى وجهك ....وأنا أعتقد أن هذا ليس بيت القصيد .. فقل الحقيقة ورزقك على الله ..

قلينى فهمى باشا

فابتسمت لسموه ، وسردت عليه القصة بما تنطوى عليه من الوقائع وبما فيها من رفت الموظف وما كان له من أثر فى دائرة الاعمال ..

فاستغرق سموه فى الضحك ، وشاع على وجهه الكريم سرور فياض ، وأخذ يتحدث الى قائلا

— والله ياقلينى أن السبب الذى دفعنى إلى اطلاق لحيتى انا ايضاً ، يشبه السبب الذى من اجله اطلقت انت لحيتك كذلك . فقد كنت حين تقلدت عرش الخديوية المصرية حديث السن ، فى فجر الصبا ، وكان والدى الخديوى اسماعيل رجلا عظيم الهيئة ، موفور القوة ، مهيب الطلعة بلحيته الكثة ، وشخصيته المرهوبة ، فاضطررت من اليوم الذى تقلدت فيه مقاليد الأمور ، ان اطلق لحيتى حتى ترانى الجماهير بنفس العين التى الفت بها رؤية الخديوى اسماعيل ، والفارق بينى وبينك انك مطلق الحرية فى اطلاقها او إزالتها كما تشاء ووقت ماتشاء ، اما انا فلا استطيع ، فهناك تقاليد لا استطيع منها فكاكا ، ولهذا فانى مضطر على الإبقاء على لحيتى العزيزة !!

هذه بعض نوادر ذاك الزمان !!

عزة النفس

وتحضرنى من حوادث الصبا أيام أن عينت حديثاً فى الوظائف النادرة التالية :

كان بخيت أغا عبدا من عبيد المرحوم سلطان باشا حاكم الصعيد العام . وكان من الذكاء وحدة الذهن ، وحسن التدبير والكياسة ، والحزم فى أعماله الى درجة رفعته لدى سيده سلطان باشا فرقاه وسما به تقديرا منه لما يمتاز به من الصفات حتى عينه وكيلا عاماً لدائرته وبهذه الوظيفة التى تقلدها طار صيته فى البلاد وخشيه الاهلون وأصبح له مكانة رفيعة فى عيون الناس تماثل منزلة خليل أغا كبير أغوات والدة الخديوى اسماعيل

ولقد بلغ من نفوذ بخيت أغا ان الحكام من مأمورين الى مديرين كانوا يحترمونه ويجلون قدره ويحسبون له الف حساب

وقد حدث فى ذات يوم ، وأنا حديث السن ، فى مطلع الحياة العملية وصدر أيام الكفاح الاولى أنه كان جالسا مع جدى المرحوم يوسف بك عبد الشهيد فى

(سلاملك) المغفور له سلطان باشا . فلما دخلت عليهما تقدمت الى جدى فقبلت يده كعادتى احتراما وامتثالا ثم حييت بعده بخيت أغا تحية باليد شبه تحية الند للند .

فقال لى جدى :

— لماذا لم تقبل يد بخيت أغا ؟ !

فاجبته :

— كيف أقبل يده ، وهو عبد ، وعندنا فى دارنا اكثر من ٢٥ من العبيد أمثاله ؟

فما كاد جدى يسمع منى القول حتى أنتهرنى ، وغضب منى غضباً شديدا فسمعه المرحوم سلطان باشا وهو يوبخنى ، فسأله عن جلية الامر ...

فقص عليه ما حدث ... فسر له سلطان باشا ، وأبدى أعجابه بجوابى وكان ذلك موجباً لعلو مكانتى فى نظره . وقال لجدى .

— أن قلينى أفندى لم ينشأ فى زمن الاضطهاد كما نشأتم ، بل هو ترعرع فى أحضان الحرية وبين جدران المدارس ، فرضع من لبان العلم ، وأنبثت فى صدره روح الاستقلال والنزوع إلى الحرية ، وعرف معنى عزة النفس والاباء وعدم الرضوخ للذل والعبودية والواجب عليك يايوسف بك ان تسر من هذه الصفات التى يتحلى بها وتنمى فيه عزة النفس التى يظهرها ، فهى دائما تخلق الرجال الاباة العيوفين .. !

فلما أستمع جدى لما قاله سلطان باشا ، قال :

يا باشا ، كل كلامك صحيح ، ولكنه اذا سمعه ، وعرف ماقاله فان الدنيا على رحبها تضيق به بل لن تسعه !..

— فسلام على تلك الايام والف سلام !..

الخلاصة

وجملة القول ان الخديوى توفيق له مآثر عظيمة لايجب إغفالها ، وفى مقدمتها مآثره على حلوان التى يقال بحق انها من صنع يديه ، لانه وان كان الذى وضع أساسها هو المرحوم الخديوى اسماعيل ، حيث أقام بها الحمامات المعدنية التى لها من المزايا مالا ينكر — والدهر لم يمهله لاتمامها ، فان توفيق عمل تخليداً لذكرى أبيه ، وحبا فى العمران ، وخدمة

للانسانية بجد واجتهاد على توسيع حلوان ، التى كانت فى عهد أبيه لا يوجد بها إلا الحمامات وفندق واحد ، وربما عدد من المنازل يناهز الخمسين فجعلها مدينة عامرة ، أصبح بها الآن ما يزيد على أربعة آلاف منزل — وخط فيها الشوارع العظيمة ، وغرس بها المنتزهات وأوجد بها المياه والنور — فالفضل كل الفضل راجع اليه فى إنشاء هذه المدينة العظيمة وعمرانها ، لانها قائمة بخدمة الانسانية خدمة لا تقدر ، حيث يقصدها كثير من سكان ممالك أوربا فى فصل الشتاء للاستحمام بمياهها المعدنية الشافية رحمه الله ، رحمة واسعة . . !

سمو الخديوى عباس حلمى الثانى

تمهيد

سمو الخديوى عباس حلمى الثانى هو بالاجماع ذكى ذكاء مفرطا ، لطيف المعشر حلو الحديث ، طلق اللسان يسحر بلطف بيانه جميع زائريه ، بل حتى مبغضيه !! كثير النشاط دائم الحركة . جم الحيوية موفور القوى . لا يكل ولا يمل من أى عمل حاضر الذهن . يفهم من وجهك ماذا تريد منه . وما يدور بخلدك . مغرم بالحقول و الزارعات بكل أنواعها . ميال لتربية الحيوانات . محب للأسفار تواق للاشتغال فى كل ما يعود منه عليه نفع مادى . وكان منهمكا فى الإشتغال بالمسائل السياسية المرتبطة بالخلافة طامعاً فى ان يكون يوما ما

الخديوى عباس حلمى الثانى

خليفة للمسلمين . أعنى ان ينقل الخلافة من السلطنة العثمانية للخديوية المصرية . وكان بالإجمال يمثل صفات جده الخديوى اسماعيل

طموحه ومطامعه ونزعاته

تولى سمو الخديوى عباس حلمى الثانى . عرش الخديوية المصرية بعد وفاة والده المغفور له الخديوى توفيق فى عهد وزارة مصطفى فهمى باشا التى بادرت باستدعاء سمو الخديوى عباس من المدرسة التى كان يتلقى العلوم فيها بفينا فحضر على جناح السرعة

وأقيم له احتفال باهر ابتهاجا بقدومه وتوليته عرش آبائه وأجداده . وكان إذ ذاك غض الأهاب فى نضارة الشباب لم يناهز الثامنة عشرة من عمره فبمجرد جلوسه على عرش الخديوية أظهر شغفا زائدا فى الاستئثار بالسلطة والتداخل فى شئون الحكومة وهو اول من ابتدع ان يكون مجلس النظار تحت رئاسته فى فى كل انعقاد يعقد حتى يكون ملما بجميع المسائل . وقد زين له الحزب الوطنى الذى كان يرأسه الزعيم المغفور له مصطفى باشا كامل بانه من الممكن اخراج المحتلين من البلد بواسطة مايبذل من تضحيات بالجهد والمال . حتى يكون الخديوى حرا فى بلده مثل جده اسماعيل يفعل ما يشاء بدون قيد ولا شرط . كما زين له الشيخ محمد عبده ، ومن كان على غراره أن يكون خليفة للمسلمين فبذل مجهودا عظيما لتحقيق تلك الاحلام بل وانفق أموالا طائلة لم يكن لها ثمرة . ولم تفد فى شىء بحيث ضاعت عليه مجهوداته وأمواله فى هذا السبيل هباء منثوراً . تلك المجهودات التى ما كانت الا وسيلة قصد منها المحيطون به انتفاعهم الشخصى ...

أهم الحوادث التى وقعت فى عهده

وقد وقع فى عهد سمو الخديوى عباس حلمى الثانى كثير من الحوادث أتذكر منها أبرزها وهى

مسألة قلب الوزارة الفهيمية . ومسألة الحدود . ومسألة نفى غبطة البطريرك الراحل والمؤتمران القبطى والإسلامى

فضل الانجليز فى تنظيم البلاد

ولا ننكر بهذه المناسبة فضل الانجليز فى نظام قوانين البلاد والاعمال المجيدة التى أدوها لمصر ، ونخص بالذكر منهم : كرومر ، وملنر ، وغورست ، وبالمرو منكريف واسكوت وهاملتون لانج ومونى وونجت واللنبى وكتشنر — هؤلاء الرجال العظام أصحاب العقول المدبرة ، الذين تولوا أكبر المناصب العالية بعضهم نائبا عن الدولة

الانجليزية بمصر . وبعضهم كموظفين بالحكومة المصرية قاموا بخدمات جليلة لمصلحة البلاد ، تخلد لهم الذكرى العطرة ويطول بى الحديث اذا أردت بيانها وتفصيلها وأخص بالذكر منهم كرومر وكتشنر وهما أعظم من رأت مصر من الانجليز .. اما الشخص الوحيد الذى كان شريرا فى اعماله ويود السوء لجميع الناس من بين رجال الانجليز فهو المستر متشل انس الذى كان وكيلا لنظارة المالية المصرية ومن اجل ذلك كان مبغوضا مكروها من الجميع . سواء كانوا مصريين او انجليز . حتى ان اللورد كرومر نفسه لما لاحظ ذلك امر بطرده من خدمة الحكومة المصرية باسلوب فيه من الإهانة والتحقير ليس عليهما من مزيد

وزارة مصطفى فهمى باشا

فمسألة المرحوم مصطفى فهمى باشا تتلخص فيما يلى .

كان هذا الوزير العظيم على رأس الوزارة حينما تولى الخديوى عرش الخديوية ، وكان رجلا رقيق الطباع ، كريم الاخلاق ، كاملا ، مؤدبا . ذكيا . متواضعا مع الحرص على الكرامة . هادىء الميول جداً . محبوبا من العقلاء . مكروها من الجهلاء لاعتقادهم أنه مرضى عنه من الانكليز فوقر فى ذهن الخديوى أن هذا الرجل « انكليزى النزعة » بالدم والفطرة . وأنه صنيعتهم وعدو الوطن وأنه . . وأنه . . الخ

صاحب المذكرات مع صديقه المرحوم مصطفى فهمى باشا فى مدينة فيشى

فاراد الخديوى أن يتخلص منه بعد ان اتفق على ذلك مع بعض الوزراء فانتهز فرصة مرض المرحوم مصطفى فهمى باشا الذى كان يترقب وفاته من آن إلى آخر . وكان الرسول الذى عهد اليه بتعقب الأخبار عن حالته الساعة تلو الساعة هو محمود شكرى باشا الذى كان رئيس الديوان التركى بالسراى

كان هذا الشخص يكرر الزيارة يومياً لمصطفى فهمى باشا متظاهراً بالمحبة والاخلاص والاستفسار عن صحة الوزير — مع أنه كان ينتظر أن يكون أول

مبشر للخديوى بوفاة مصطفى باشا . ولما يئسوا من عدم وفاته ووجدوا أن صحته آخذة فى التقدم إلى أن قارب دور الشفاء . أرسل الخديوى محمود شكرى باشا ليخبر مصطفى باشا بأن صحته تستلزم الراحة زمناً طويلا ولذلك أشار عليه أن يقدم استقالته لأنه صمم على تشكيل وزارة جديدة . فكان جواب مصطفى فهمى باشا لمحمود شكرى باشا

— ان جناب الخديوى شاب شديد الاندفاع . ماتهب الطباع وليس له تجارب كثيرة وأخشى عليه كثيراً لأنى محب للبيت الخديوى فانصحه ان لا يفعل امرا إلا بعد استشارة وارشاد اللورد كرومر . فكبر على الخديوى ذلك وزاد اعتقاده فى أن الرجل صنيعة الانجليز واشتد بغضه له وحقده عليه والفضل فى ذلك لمحمود شكرى باشا ، لانه أثار الخديوى كثيراً بأقوال مفتعلة لم تصدر من مصطفى فهمى باشا . فاصدر الخديوى بدون استشارة كرومر مرسوما باقالة نظارة مصطفى فهمى باشا وتشكيل نظارة جديدة برئاسة فخرى باشا .

غضب كرومر وثورته

فقام اللورد كرومر وقعد لهذا العمل ، وأمر فى الحال باسقاط الوزارة الجديدة واعادة النظارة القديمة إلى مراكز الحكم فاصبح بذلك مركز الخديوى مهدداً وحرجا جدا الخروجة

وتوسط بعض الوزراء لدى كرومر ملتمسين التساهل فى الأمر بمعنى ان يترك شىء للخديوى بجانب شىء بجانب للورد حتى لا يتضاءل نفوذ الخديوى . وأخيراً قر الرأى بعد أخذ ورد طويلين على إقالة رئيس النظارة الجديدة فخرى باشا . وان يحل محله رياض باشا الذى اختاره كرومر . وانقضت المسألة على هذه الصفة ولكنها أبقت فى النفوس بعض الأحقاد ومع هذا فقد ظن الخديوى انه فاز فوزا عظيما ، وأوعز بواسطة رجال المعية لرؤساء المصالح وأعيان البلاد وأهاليها . بسوق الوفود اليه لتقديم التهانى فتوجهت وفود حاشدة لعابدين وكنت من بينهم أحد أعضاء وفد كثير العدد من ذوات القطر وكبار موظفيه . فاستقبلنا الخديوى بوجه فرح وصدر

منشرح مما يدل على انه مغتبط من عمله الذى قام به . وانه نال شبه انتصار فى سياسته وكان يحادث القوم بغير مبالاة قائلا . هل انتم مبسوطون فيجيبون نعم يا أفندينا ، ربنا يطول عمرك

هكذا كان جواب جميع الحاضرين ، وعلاوة على ذلك كان البعض يقول له :

« يا أفندينا ربنا كتب خلاص البلاد على يدك وما رأينا هذا الحماس وحب البلاد وأهلها صدرا من غيرك ربنا يخليك ويطول عمرك

وكثير من الفاظ التفاق والملق التى الفها أهل بلادنا ، الذين يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ، والذين كانوا ينطقون بمثل هذا القول وبمجرد خروجهم من الحضرة الخديوية كانوا يقصدون الى كرومر ويلتمسون التشرف بالمقابلة وهم يقولون له :

— « لولا وجودك فى بلادنا لما كنا عرفنا نخرج من بيوتنا ، وكنا شحذنا العيش » !!

صيحة الحق وكلمة الصراحة

هكذا كانت صفات بعض أهالى البلاد وربما كان ذلك ناشئا من الذل الذى قاسوه من حكم الاستبداد القديم الجائر الذى ألفوه ومن المظالم التى لا تحصى التى أنصبت فوق رؤوسهم ... ولعل لهم بعض العذر فى ذلك .

وعند مصافحتى للخديوى ساعة الانصراف أستوقفنى أمامه لحظة ويده فى يدى وسألنى — لم لم تتكلم — ومارأيك الخاص ؟ — أنا أعرف فيك أنك حر الفكر ولا تخشى أن تبدى رايك بصراحة ؟ ! .. قل كلمتك فانى اود سماعها ! !

فقلت — يا افندينا : إن رأيى مخالف لراى الجميع فان سمح مولاى بالكلام فانى اتكلم فقال — نعم قل ماتريد !

فقلت يا افندينا ان كل ما حدث لا يفيد البلاد بشىء — ولم ندينه عزه الله بشىء مطلقا وغاية ماهناك يترك فى النفوس اثرا ربما ينتج عنه تاخير بعض الاصلاحات النافعة للبلاد . ومثل هذه الاعمال لا تخرج الانجليز من بلادنا ولا تزحزح

الاحتلال . ومصر بأكملها وبجميع قواها . كما يعلم أفندينا ، لا يمكنها أن تقف فى وجه الانكليز ، واذا كنا مسلمين بان الاحتلال الانجليزى باق فى بلادنا ، فكل عمل عدائى له يضر بمصلحتنا . واذن فالذى أشير على أفندينا به هو أن يكون الجو بيننا وبين النظار فى صفاء واتفاق تامين للعمل معا لما فيه مصلحة البلاد وبدون واسطة النظار — والنظار بعد الاتفاق بين أفندينا واللورد كرومر على أى أمر يتلقون الأوامر من أفندينا مباشرة خير من تلقيها من كرومر . لأن النظار يتفقون معه على كل شىء سواء رضى افندينا أم لم يرض وفى النهاية يقبل مولاى بعملهم التوقيع على الأوامر

فاطرق أفندينا برأسه مفكراً وقال « نعم عظيم جداً . وهذه أحسن طريقة فى الأحوال الحاضرة إلا انى أرى ذلك ثقيلا على نفسى » !

فقلت لأفندينا — اذا كان الأمر كذلك ولا يقبله أفندينا ، يوجد أمر آخر وهو جعل مناصب النظار مناصب شرف لايدفع عنها مرتب شهرى سوى تقرير مبلغ كمصاريف انتقال ٤٠ جنيهاً فى الشهر . كما هو الحاصل فى سويسرا وبعض ممالك أوروبا الديمقراطية

وبهذه الطريقة يمكن العمل بغير الدسائس . لأن الناظر الذى يتقاضى مرتبا ضخما يعز عليه حينذاك ترك مركزه . فلذلك يسعى جهده للبقاء فى وظيفته بأى ثمن حتى لو باع فى سبيل ذلك ، البلاد ومن فيها ، وعلى رأسها سيدها !..

فقال — هذا صحيح وهذا الرأى يعجبنى جداً ، ولكنى لا أستطيع تحقيقه . حيث كما تعلم أن هذه المرتبات الضخمة جعلت للنظار كثمن اشتراهم الاحتلال الانكليزى به ليكونوا خاضعين لارادته فقلت — يامولاى لا أرى حلا للاشكال إلا قبول أحد هذين الأمرين ، واستأذنته وانصرفت . وأتذكر أن كثيرين ممن كانوا معى لاموني لوماً شديداً على جراءتى وصراحتى مع الخديوى فضحكت ضحكا عاليا مستهزئا وتركتهم غير مكترث باقوالهم وقلت لهم لو بطل التملق لرأينا الحكام باحسن حال ، والأمم فى أوربا تربى الحكام وتهذب أخلاقهم وتقوم اعوجاجهم وتعلمهم كيف يسوسون البلاد ونحن مع الأسف نفسد أخلاق الحكام بدوام تملقنا الكاذب ونفاقنا الزائد ، ورياءنا الذى لا يطاق . وهذا مما أوجب خراب البلاد وسبب فسادها مع الأسف فكونوا كما تريدون واتركونى أكون كما أريد

حادثة الحدود

أمتعاض كتشنر للتنديد بالجيش

كان الخديوى عباس — كما قلنا — شاباً متحمساً تملأ قلبه الحيوية الدافقة عندما جلس على كرسى الخديوية المصرية ، وكان محاطا بدعاة الحزب الوطنى ومتشبعا بأفكارهم العتيدة !

وكان قنصل عام فرنسا فى ذاك الوقت المدعو المسيو دى ريفرسوه على الدوام، يشجع الخديوى فى كل فرصة يراه متحمسا فيها ضد الانجليز . وكان يؤكد له ان دولة فرنسا مستعدة أستعداداً كاملا لتعضيده فى كل مايطلب ويرغب — فطمع الخديوى فى هذا القول ورأى فيه استئناسا عظيما ولذلك عند ماقصد الحدود وأستعرض الجيش المعسكر هناك انذاك — عاب عليه بعض الحركات . فامتعض من ذلك اللورد كتشنر ولكنه لم يظهر أمتعاضه بل كتم فى نفسه الامر ، وبادر فابلغه الى اللورد كرومر ، فعندما علم بذلك اللورد أقام الدنيا وأقعدها وخابر وزارة الخارجية الانجليزية وحصل منها على تصريحات فيما يفعل فى هذا الموضوع كما أراد !

رحلة الخديوى بالمديريات

وفى خلال ذلك قام الخديوى من أسوان ماراً بالمديريات التى فى طريقه الى أن وصل الى مديرية الفيوم ، وفى أثناء رحلته اليها قصد اللورد كرومر دولة رياض باشا وقال له . اما أن يعلن الخديوى شكره للورد كتشنر وثناءه للجيش ، وأما أن لا يعود الى مصر ؟؟ فكبر الامر على رياض باشا جداً وقال له كيف ذلك ؟ هل لم يكن من حق الخديوى وهو القائد الاعلى للجيش ان يوجه انتقادا أو يبدى ملاحظة اذا رأى ذلك ضروريا ؟ فقال له اللورد انه لم يقصد بما فعله الا الحط من كرامة الانجليز الذين هم أساتذة الجيش المصرى ، وعليه فنحن نعتبر ماحدث منه اهانة للدولة البريطانية فقال له المرحوم رياض باشا : أترك لى الامر وأنا أسوى المسألة بما يرضيك وبما تقتضيه

الضرورة عند عودة الخديوى لمصر — فقال له : اعلم يا باشا أنه لا يمكن أن يعود قبل أن يجيبنى ويحقق لى ماطلبت . فوقع رياض باشا فى حيرة كبيرة ، لانه إشتم من كلام اللورد أن مركز الخديوى مهدد وأن الموقف حرج وخطير

موقف فرنسا المخجل !!

فأراد أولا أن يقابل قنصل عام فرنسا ويستطلع رأيه فى الأمر ، فعند ماقابله تغيرت آراء الرجل تغييراً كبيراً وفترت حماسته إلى درجة البرود ، وقال لرياض باشا ان الخديوى أخطأ فيما فعل ، وان دولة فرنسا لا يمكنها التدخل فى ذلك أبدا ؟ فقال له : ياجناب القنصل كثيرا ماقلت للخديوى بأن فرنسا تعضدك والآن تتبرأ مما وعدت وقلت كلية بعد أن رأى فى أقوالك المشجعة الحماسية مادفعه إلى هذا الأمر — فقال أنا قلت لسمو الخديوى أنه حين يوجد سوء تفاهم بسيط فى مسائل جزئية ، فبطريقة ودية يمكننا تسويتها وبهذه الكيفية هرب الرجل من كل ماوعد به وتنصلت فرنسا من موافيقها .

حكمة رياض باشا

أزاء هذا لم يكن أمام رياض باشا الا أحد أمرين اثنين أولهما أن يرفض إجابة طلب اللورد كرومر ولا يذهب الى الفيوم ، فيترتب على ذلك ضياع العرش من الخديوى — والامر الثانى هو أن يتوجه للجناب الخديوى ويشرح له الحالة بتفاصيلها ويستميله إلى تسوية المسألة وبذلك يحفظ العرش ويخدم الوطن . وأخيرا رجح لمصلحة الوطن ولبقاء العرش أن يسافر إلى الفيوم بكامل هيئة مجلس الوزراء ويعرض الأمر على الجناب الخديوى وفعلا فعل ذلك ، وسويت المسألة بالطريقة المعروفة .

وبعد ذلك وصل الخديوى الى العاصمة ونزل بسراى القبة زمنا طويلا محتجباً عن

المقابلات الرسمية . وعن كل شيء وأخيرا نزل بسراى عابدين وقابل جميع الناس وباشر الاعمال الرسمية كالمألوف. أقول هذا لانى كنت فى ذاك الوقت بحكم وظيفتى ملازما للمرحوم رياض باشا ومطلعا على مجريات الامور وما يدور خلف الجدران

المؤتمران القبطى والاسلامى

اغتيال بطرس غالى باشا

ومن الأمور البارزة التى حصلت فى عهده أيضا أن المرحوم بطرس باشا تولى رئاسة النظارة خلفا للمرحوم مصطفى فهمى باشا ، وكان اذ ذاك حائزا لثقة الخديوى ومامكث الا أياما قلائل حتى قتل بيد أثيمة — والاقوال متضاربة ومتعددة فى صدد مقتله فمنهم من نسب مقتله لدسائس من بعض النظار الحاقدين عليه . ومنهم من نسب ذلك الى بعض رجال السراى والله أعلم بالحقيقة — فاظهر سمو الخديوى عطفا كبيرا عند قتل المرحوم بطرس باشا وغمر بعطفه السامى عائلته . حتى انه خلافا للتقاليد توجه بنفسه لمنزل بطرس باشا وقدم لها عزاءه الكريم . كما أمر حرمه المصون بأن تعزى حرم بطرس باشا فى منزله وهذه فى الواقع رعاية لاتعادلها رعاية

كيف نشأت فكرة المؤتمر

ولقد حدث مقتل المرحوم بطرس باشا فى عهد السير غورست حين كان مندوبا عن الدولة الانجليزية بدلا من اللورد كرومر . وقد كان الخديوى ممتلئا منه غضبا وقلبه عامر حنقا ضده فاراد أن ينتهز هذه الفرصة للانتقام والنكاية مع انه هو الذى اختاره ليكون بدلا عن اللورد كرومر . وكان إذ ذاك قد كيف الحزب الوطنى عن مناصرة الخديوى فاراد ان يستخدم بعض صغار العقول من الأقباط لتحقيق أغراضه — وذلك بان أفهمهم بالقول بان لهم حقوقا ضائعة ، وهو يود معاملتهم بالعدالة والمساواة كغيرهم ، لولا ان مندوب الدولة الانجليزية واقف فى وجهه معارض لآرائه . وأشار عليهم بان يعقدوا مؤتمرا يقررون فيه طلباتهم وينادون باغراضهم ويرفعون بها تقريرا لسموه وآخر للدولة الانجليزية ..

موقفى مع سموه فى هذا الامر

وكنت أعلم ان الخديوى لم يكن يقصد بهذا سوى ان يخلق ارتباكا للسير غورست يرمى من ورائه الى اسقاطه اذا أمكن . ولم يدر ان فى ذلك ما يوجب الشقاق بين أبناء مصر من العنصرين اللذين منهما يتألف كيانها فطلبت مقابلة سموه ، والتمست ان يكون حين مقابلتى معه رئيس النظار بصفته مسؤولا عن الأمن العام . فأمر بمثولى أمامه وكان فى حضرته كبير النظار المرحوم محمد سعيد باشا كما طلبت فقال لى ماذا تريد ياقلينى باشا فقلت .

— هل أفندينا يسمح لى أن أتكلم بحرية

فقال . تكلم

فقلت يا أفندينا لا يوجد أحد فى الدنيا يحرق بيته بيده . فقيام الأقباط الان بعقد مؤتمر بالصفة التى أشير بها يعد اعلان حرب على اخواننا المسلمين الذين هم منا الجزء الذى لاينفصم لأنهم متفقون فى المعيشة وفى السراء والضراء مع الاقباط كعائلة واحدة ، فأخشى أن يترتب على ذلك ما لاتحمد عقباه وتكون أضراره على الأقباط أشد فداحة منه على المسلمين ؛ وأنا أعرف أن كلمة من سموكم تقضى على كل ذلك حتى نعيش مع اخواننا كما كنا نعيش فى هدوء وسلام فى مختلف الازمنة ..

رأى سموه فى المسألة

وهنا قال سموه : لا قلينى باشا هذه مسائل دينية أنا لم أدخل ولا أتداخل وان أتداخل فيها ؟

فقلت — ياأفندينا أنا لاأتكلم عن كنيسة ولا عن مسجد ؛ حتى يكون العمل [illegible] عن مصلحة عامة أقصد بها دوام السلام ونشر الصفاء والاخاء بين الأخوين الأقباط [illegible] مسلمين ، وأخشى ان هذين الامرين ينعكس الغرض منهما إلى النقيض لاسيما اذا قام الاقباط بعقد المؤتمر المنشود فاذا كان أفندينا لايأذن بعدم عقد هذا

المؤتمر الذى أخشى أنا عواقبه كثيراً . ولايجب هو التداخل فى أمره فليسمح لى اذن أن أتكلم فى شأنه مع السر غورست . وأنا حينذاك أكون قد أديت للامة واجبى كمواطن.

فقال سموه : — لا مانع عندى من ذلك ، تحدث مع من شئت ...

رأى رئيس النظار

عندئذ نطق رئيس النظار بعد أن كان صامتا وقال

— يا افندينا هـذا أمر واقع فى البلد ، ونترك الشأن فيه لقلينى باشا بدون أن تتداخل فيه السراى ولا الحكومة ، ان هذا لهو امر يوجب الشكوك ويثير الظنون فليسمح لى افندينا ان اتكلم فيه مع السير غورست انا شخصيا

موقف غورست من المؤتمر

فقال — لامانع . ولكنه فى الوقت ذاته اوعز لبعض من أشار عليهم بعمل المؤتمر أن يشكو السير غورست إذا وقف حجرة عثرة فى سبيل المؤتمر المرغوب عقده . وأشار عليهم أن يرفعوا شكواهم الى الوزارة الانجليزية فى لندن رأسا ضد تصرفات السير غورست . وفعلا وقع ما كان ينتظر وقوعه ، حيث أن السير غورست رفض الموافقة على عقد المؤتمر . فأرسلوا شكاوى عديدة يحارون فيها بالاحتجاج على موقف السير غورست حتى أنه فهم أخيرا ان هذه المناورات من الخديوى .

السماح بعقد المؤتمر القبطى

وأخيرا وصلت أوامر من لندن تسمح للاقباط بعقد المؤتمر ، وعقد فعلا بأسيوط « المؤتمر القبطى » وأصدر الحاضرون قرارا مما أرادوه مما أغضب المسلمين غضبا شديدا الى حد أنهم قاطعوا الاقباط فى جميع وسائل معاملاتهم — فتقابل السير غورست مع الخديوى وقال له :

— أنا أعلم أن الذى حرض الاقباط على هذا العمل هو سموكم ؟ . فانكر الخديوى

علمه بذلك . فقال له السير غورست ، اذا كان مايقوله الخديوى هو الواقع فلا يسمح للقائمين بهذا المؤتمر بالدخول للسراى ولا مقابلتهم ولا الاستجابة لطلباتهم . فلم ير الخديوى بدا من قبول تلك المطالب . حتى يتظاهر بأن لا يد له فى هذا العمل ، ولا علم له بجملة هذا الموضوع . فاراد محمد سعيد باشا رئيس النظار من جهة أخرى أن يكسب عطف السير غورست عليه ويتقرب من الانجليز على حساب الاقباط . فحسن للسير غورست أن يعقد مؤتمرا اسلاميا يناهض المؤتمر القبطى فى أعماله — وكان ذلك . ولولا أن تولى رياسة المؤتمر الاسلامى رجل حكيم مشهود له ببعد النظر ، وهو المرحوم رياض باشا لنشبت من جراء تلك المؤتمرات مذبحة بين الاقباط والمسلمين أو حرب اهلية بين عنصرى الامة الشقيقين .

حكمة اللورد كتشنر تقضى على الدسائس

رأيت وانا الوحيد الذى ابتعد عن الاشتراك فى هذه المؤتمرات ومقت قيامها وكره وجودها : انه اذا استمر الحال على هذا المنوال لحصل فساد عظيم وضرر كبير بالبلاد تنهار من جرائهما بنيان قوميتها — وتضحى فيه مصالح الكثيرين من العنصرين فعرضت الامر بحذافيره على وزير خارجية انكلترا ، فاصدر الى اللورد كتشنر مر مشددة بشأنه وامرنى بالاتصال به ، وشكرنى على هذه الغيرة الوطنية والنزعة الانسانية ...

فقابلت اللورد كتشنر الذى تولى اذ ذاك منصبه — بمصر فاعجبه كثيرا فكرى ورائى وشكرنى شكرا عظيما على هذه الفكرة ، ودعا من فوره زعماء المؤتمرين وامرهم فى الحال بحل هذين المؤتمرين واعتبارهما كأنهما لم يكونا ، وكان أمره أمراً نافذاً لا يستطيع احد مخالفته فعادت المياه الى مجاريها وحل الصفاء والسلام محل العراك والخصام مما اوجد رابطة قوية ووحد آراء العنصرين وقوى تضامنهما فى خدمة البلاد

وإنى افخر بكونى كنت من الذين سلكوا سبيل السلام والوئام مبتعداً عن كل فكرة تعصبية لأن التسامح والتضامن واحترام الجميع هو مبدئى الاسمى

خدمات كتشنر بالقاهرة للمصريين

ولا ينسى المؤرخ المنصف فضل اللورد كتشنر العظيم ، ولا خدماته الباهرة للمصريين . فقد كان يحب الفلاح المصرى ، ويغمره بالعطف الكريم ، والحدب العميم . حتى اطلق عليه بعض المصلحين لقب «ابى الفلاح» ذلك لأنه اول من وضع لخيره جملة قوانين ، تكفل مصلحته ، وتحقق اسعاده وفى طليعتها «قانون الخمسة أفدنة» : لحماية الملكية الصغيرة من الضياع من أيدى أصحابها . كما أنه كان السبب فى انشاء «الجمعية التشريعية» واعتبار قراراتها نافذة نهائية ، كما يعود اليه الفضل فى إنشاء «وزارة الزراعة» لاعتقاده بحاجة مصر بوصفها أمة زراعية اليها . ومن أعماله العظيمة انشاء طريق السيارات بين القاهرة وحلوان فى مدى شهر من الزمان . بما زرع على جانبيه من الأشجار مع رصفه بالمكدام

نفى البطريرك

البطريرك الأسبق المتنيح الأنبا كيرلس كان بلا شك رجلا قديساً صالح الأعمال طاهر القلب ، بعيد النظر ، حكيم الفكر ، فى أقواله وأعماله ، محترما لدى المسلمين والنصارى والافرنج على السواء ، وكان الانجليز يحبونه كثيراً ، كما ان الخديوى كان يحترمه جداً للصفات الرفيعة التى يتحلى بها . ونظراً لكون السيد البطريرك

غبطة المتنيح الانبا كيرلس

كان قد نفى هو والأنبا يؤانس بناء على طلب فريق من الاقباط الى ديرهما ، فالقصة الخاصة بنفيهما والمجهودات التى بذلتها لإعادة البطريرك كيرلس وخلفه البطريرك الأنبا

يؤانس من منفاهما أكتفى بذكر بيانها وما تخلله من الحوادث بما بشرته ضمن رسالة فى جريدة «المقطم» فى سنة ١٩٢٧ قلت فيها مايلى :

للحقيقة والتاريخ

اسمحوا يا أصحاب المقطم الكرام قبل كل شىء ، ان أشكركم من أعماق قلبى ، شكرا جميلا على ما خطه قلمكم السيال من الآيات البينات ، رثاء للحبر الأكبر ، قداسة البابا المعظم بطريرك الكرازة المرقسية والحبشة والسودان ، والمدن الخمس الأنبا كيرلس — وعلى رواياتكم تاريخ حياته الممتلىء بالفضيلة والمحبة ، وخدمة الانسانية بما يطابق الحقيقة ، باستثناء الشطر الخاص بنفى قداسته ، ونيافة مطران الاسكندرية الأنبا يؤانس ، فإن بعض ما جاء فيه بعيد عن الحقيقة ، وليس من رأى كمن سمع ، خدمة للتاريخ تطوعت لبيان حادثة هذا النفى

من هو صاحب فكرة النفى

قلتم فيما نشرتموه ، أن من فكر فى نفى غبطة الحبر الأكبر هو الجناب الخديوى وهذا القول بعيد عن الحقيقة ، ولم يخطر لسموه هذا الأمر مطلقاً ، بل أن سموه كان يجل غبطة البطريرك كثيراً ، ويحترمه كل الاحترام ، ويعتقد فى صلاحه اعتقاداً كبيراً وكان اذا جاء ذكر غبطة البطريرك فى حديث يقول سموه لى (سيدنا غبطة البطريرك قال لى كيت وكيت) وانما الذى خطرت له فكرة نفى السيد البطريرك هو المرحوم بطرس باشا غالى ، لأنه رحمه الله كان يعتقد أن مبادىء غبطة البطريرك ، لاتطابق مبادىء العصر الحاضر ولهذا رأى بل اعتقد أن العلاج الوحيد لذلك ، هو نفى غبطة البطريرك ، وزميله نيافة الأنبا يؤانس مطران الاسكندرية انذاك الذى كان صديقاً حميما للسيد البطريرك ، وتسليم إدارة شؤون الطائفة إلى المجلس الملى

معارضة قوية ضد تقاليد شريفة !

ولما كانت عادة الطائفة القبطية قديماً أن تخضع لمن يكون من ابنائها متقلداً لمنصب حكومى رفيع مسموع الكلمة ، نافذ الأمر فكانت تتخذه كزعيم لها . وقد شاهدت منذ نشأتى أربع زعماء من هذا القبيل ، أولهم المرحوم وهبه بك الجيزاوى باشمحاسبجى الحكومة وكان موضع ثقة اسماعيل باشا المفتش وسمو الخديوى العظيم اسماعيل باشا فإن الأقباط كانوا يجلونه ويحترمونه وينقادون لأى إشارة تصدر منه وبعد وفاته حل محله المرحوم دميان بك ، وبعده المرحوم عريان بك ، وبعده المرحوم بطرس باشا غالى وكان رحمه الله آخر الزعماء المسموعى الكلمة ، والمحترمين عند الطائفة ، وبعد وفاته أصبح كل قبطى مهما كان مركزه . ولو كان نجارا أو حدادا يعتقد فى نفسه انه زعيم من زعماء الطائفة ..؟

ذكرنا هنا هذه اللمحة التاريخية بل الاجتماعية لنقول بعدها أنه عندما أظهر المرحوم بطرس باشا رغبته فى نفى السيد البطريرك ، شايعه فى الرأى جميع أعضاء المجلس الملى ، ولم يعارضه أحد منهم سواى ، لكن تغلب رأى الأغلبية ، وبقيت أنا ثابتاً على معارضتى . واتفق أنصار بطرس باشا على تقديم عريضة بإسم المجلس الملى لسمو الخديوى يلتمسون فيها نفى غبطة السيد البطريرك ونيافة المطران ، ورغب منى المرحوم بطرس باشا فى التوقيع معهم عليها فرفضت فارسل لى مقار باشا وباسيلى باشا ليقنعانى فلم أسمع لهما وظللت ثابتاً على معارضتى للنفى

وبعد ماوقعوا على هذه العريضة بذلوا مساعى عظيمة لدى رئيس النظار بالنيابة المرحوم عبد الرحمن رشدى باشا ، واستعانوا بالمرحوم نجران باشا الذى كان صديقاً حميما س باشا . ففازوا باقناع دولة رئيس النظار ووافقهم على رفع عريضتهم للاعتاب السكريمة ، وفعلا قدم تلك العريضة للجناب الخديوى ، وبذل مجهودات عظيمة لاقناع سموه بأجابة طلب نواب الطائفة مادام انهم يرون فى ذلك اصلاح شؤونهم ، فوافق الجناب العالى على إصدار أمره الكريم بذلك إجابة لالتماسهم فحسب . وعلى ذلك لم تكن فكرة النفى فكرته ، بل هى فكرة بطرس باشا كما توضح

الى المنفى ...!

وعقب ذلك أخذ السيد البطريرك بقوة عسكرية مسلحة مخفورا بها لتوصيله إلى محل منفاه وهو دير البراموس ، كما يؤخذ أحد المجرمين فكان يسير باشر الوجه مع الحرس المدجج بالسلاح . ويقول لهم لماذا هذا السلاح ، وهذه العدد ، وهذه القوة وأنا شيخ كبير لاقوة لى والله القادر يفعل مايشاء ويريد ، ويعقب على هـذا الكلام بالصلاة لله أن يغفر للناس سيئاتهم . . !

نفى البطريرك ونفى المطران بالطريقة التى ذكرت ، فقام جمهور الطائفة وقعد من جراء ذلك الحادث لأن الشعب يعده قديساً وسيدا ويركعون سـجودا لاسمه ، كلما ذكر إحتراما لمقامه الدينى ولشخصه الكريم .!

كيف أعيد المتنفيان

وعاد عقب ذلك المرحوم مصطفى فهمى باشا من أوروبا وكان أصلا هو رئيس النظار ؛ فاظهر عدم رضاه عما حدث ولام عبد الرحمن رشدى باشا الذى كان نائبا عنه لوما شديدا على ذلك ، ولم تمض أيام قلائل حتى سقطت وزارة مصطفى باشا ، والفت وزارة الرجل العظيم رياض باشا ، فكان من بأكورة أعماله الاهتمام بعودة غبطة البطريرك معلنا سخطه الشديد على نفيه حتى أنه قال للجناب الخديوى :

— أنت ياأفندينا لاتملك نفى فرد بسيط من الأفراد إلا بحكم يصدر من المحكمة فكيف تأمر بنفى رئيس دينى جليل المقـام يماثل بابا رومه ، وكيف يكون موقف سموكم لو التجأ البطريرك لمابحا كم ؟ فتأثر الجناب الخديوى من هذه الالفاظ وقال هذا خطأ الذين طلبوا منى هذا الطلب ولـكنى اطلب منك ياارياض باشا العمل على عودته سريعا معززا مكرما .. !

ترضية عظيمة ..!

وكان للمرحوم رياض باشا ثقة عظمى بى ومن جهة اخرى كان معروفا عنى اننى غير راض عن نفى غبطة البطريرك ؛ فلهذين السببين استدعانى وسألنى عن خير الوسائل

﴿ غبطة المتنيح الأنبا يوأنس ﴾

لإعادة البطريرك موفور الـكرامة ، فأجبت ان أحسن الوسائل لذلك أن يتقدم التماس لدولتكم من الهيئة التى التمست نفيه ترجو فيه من الحكومة إعادته لأن فى ذلك حفظا لـكرامتهم ، وترضية لغبطة البطريرك . وعند وصوله الى محطة العاصمة ، يقابله كبار رجال الحكومة . ويكون فى انتظاره هناك فرقة عسكرية لتـأدية التحية له . وعند تشرفه بمقابلة سمو الخديوى يقلده بيده الـكريمة الوشاح المجيدى الا كبر فاعجب بإقتراحى كثيرا ، فأقره وأمر بتنفيذه ؛ ولـكنه لم يرق المرحوم بطرس باشا . لـكن هذا لم يكن داعيا لتأخير تحقيقه . إذ بادر المرحوم رياض باشا وأصدر أوامره فى الحال بعودة السيدين واستقبالهما بالمحطة طبقا لما ذكرته تماما فكان يوم قدومهما لمصر يوما سعيدا بل عيدا عظيما من أعياد الأمة المصرية على السواء !

غبطة البطريرك يصفح عمن أساءوه

ثم طلب من المرحوم بطرس باشا ان أطلب من السيد البطريرك زيارة أبنائه الذين كان غير راض عنهم ويصفح عما حدث فلبيت الطلب وقمت بالمهمة أحسن قيام لأن محبة البطريرك لى وتقديره لعواطفى نحوه جعلاه يتملنى ثقة بى ، فكان يجيبنى إلى كل ماأطلب ، ودعانى إلى مرافقته فى زيارة حضراتهم وزارهم جميعاً ومنهم المرحوم بطرس باشا ، وكان يوماً مشهودا تجلى فيه السرور العام والأخاء التام بين البطريرك وأبنائه . . !

وبعد ذلك تم الاتفاق على أن يلغى المجلس الملى الذى كان سببا فى أبعاده ولو مؤقتا . وتقوم مقامه لجنة ملية تتألف من أربعة تحل محل المجلس فى جميع أختصاصاته ووقع الأختيار على الأربعة الآتية أسماؤهم وهم كاتب هذه السطور وحنا بك باخوم ووهبه بك شلبى وبطرس بك يوسف وتسلمنا إدارة العمل واشتغلنا أكثر من عشر سنوات مع غبطة السيد البطريرك لم نر فى أثنائها معارضة منه فى أمر من الأمور . بل كان متفقا معنا تمام الاتفاق ، وهو الذى كان يرأس الجلسات دون سواه .

فرأت اللجنة أن تستفيد من هذا التسامح العظيم من غبطته بأن تطلب من قداسته تأليف مجالس فرعية ملية بجميع الجهات الموجود بها مطارنة وأساقفة فلم يتردد قداسة البطريرك فى إجابة طلبنا وصدرت أوامره الكريمة بتنفيذ تلك الفكرة ، والفت فعلا تلك المجالس بجميع المديريات والمحافظات ولم تزل باقية للآن سائرة فى عملها على خير الوجوه . . !

هذا هو الواقع كما حدث

كيف عين الانبا يوأنس بطريركا

صفحة من التاريخ الحديث

حين اختار الله الى جواره مطران الحبشة السابق، ولحقه الى الدار الباقية قداسة البطريرك الأنبا كيرلس الخامس . كان ذلك فى عهد المغفور له الملك العظيم مولانا فؤاد الاول . فرأى بفطنته ان شقة الخلاف قد أخذت تتسع بين الاقباط فيمن يعين بطريركا . وخشى جلالته ان تنتهز بعض الدول الفرصة ، وخلو كرسى الحبشة من مطرانها القبطى المصرى فتعمل على احلال مطران غيره من أبنائها مكانه . ولما كانت مصر مرتبطة بالحبشة بعلاقات قديمة سياسية ودينية . وكان اختيار مطران لها لا يتم إلا اذا «رسمه» بطريرك الاقباط فقد استدعانى جلالته وشرح هذا الامر قائلا

﴿ الأنبا متاؤوس مطران الحبشة السابق ﴾

— إنى أرى أن يعجل الاقباط فى اختيار بطريركهم ليتسنى «رسم» مطران الحبشة فى أسرع ما يمكن من الزمن، حتى يقفل باب الدسائس نهائيا ولا سيما ان هذا الامر يهمنى خاصة من جميع الوجوه

التقاليد الكنسية

فأجبت جلالته بأنه توجد اختلافات كثيرة بين الاقباط عمن يرشحونه بطريركا والأمر به من الصعوبات غير قليل . لأن التقاليد المتبعة أن يختار البطريرك من بين رهبان الاديرة

فاجابنى جلالته :

— على كل حال ، أرى أن الأنبا يوأنس جدير بهذا المركز ، فهو رجل عظيم واسع المعرفة . وهذه ميزة قد لا تتوفر لاحد من الرهبان — إذ انهم منقطعون عن العالم . وليس لهم كبير دراية بالأحوال المدنية . ولا تجارب تكفل لهم النهوض بأعباء هذا المنصب الرفيع الذى سوف يشغلونه .

فقلت . يامولاى ، ان التقاليد تقضى باختياره من الرهبان دون المطارنة

فقال جلالته . دعك من الماضى وتقاليده وأعمل كل جهدك فى تذليل الصعوبات كلها . لكى يتم إختياره لهذا المنصب . وأنا اساعدكم على تحقيق ذلك

فقابلت عطف جلالته السامى بالشكر والدعاء .

فضل الملك فؤاد فى اختيار البطريرك

ولما بدأت المساعى بين طوائف المختلفين وبسطت لهم الأسباب التى تدعوهم إلى التفاهم ونبذ الأختلافات ، ولا سيما أن هناك رغبة سامية بذلك ، وعاونتنى فى هذه المهمة سعادة توفيق دوس باشا . تم لنا تحقيق هذه الأمنية الكريمة باختيار قداسة الأنبا يوأنس بطريركا . وبعد انتهاء المراسيم الدينية ، أوكلنا اليه اختيار مطران الحبشة ، فاختار نيافة المطران الحالى

وقد تألف وفد كبير على رأسه غبطة البطريرك ، لتقديم الشكر لجلالة الملك فؤاد وكنت خطيب هذا الوفد ، وأفصحت فى كلمتى فضل جلالته فى وضع حد للشقاق

* * *

فللحقيقة والتاريخ ، ذكرت هذه الحوادث ، معتقداً أن فى نشرها خدمة للواقع

هبوب العاصفة بعد السكون

ظلت الحالة هادئة بحسن سياسة هذه اللجنة إلى أن قام فريق كبير من الأقباط من الذين لايرغبون فى السلام وسعوا لدى الحكومة لأعادة انتخاب مجلس

جديد على مثال المجلس المنحل . وفعلا اجيبت طلباتهم ، وتم انتخاب المجلس المنشود وأخذ أعضاؤه فى التشامخ والتعالى أمام ذلك القديس الطاهر الانبا كيرلس . فما احتملت نفسه العالية ذلك الغرور ، فأمر بطرد أعضاء المجلس جميعاً وقفل باب الديوان الذى كانوا يجتمعون فيه والتنبيه عليهم بعدم العودة للدار البطريركية وظلت الطائفة محرومة من وجود هذا المجلس زمناً طويلا .

فأراد فريق من الأقباط أن يستعين بالمرحوم بطرس باشا فى حل هذه المشكلة ، ولكنه رفض التداخل فى أى أمر له علاقة بالمجلس أو بالبطريرك . فتوجهوا للسراى ورفعوا شكواهم لسمو الخديوى ، وبثوا ظلامتهم . فكان جوابه ، اننى احترم هذا الشيخ وأعتقد فيه أنه رجل مبروك فلا أريد أن أفعل شيئاً لايرضيه ، فى أيامه الأخيرة وأخيراً قصدتنى هيئات متعددة من الأقباط قائلين أن بطرس باشا كف يده ، والخديوى لم يقبل سماع شكوى . وحالة الطائفة أصبحت سيئة وتعطلت مصالحها ، لاسيما مسائل الطلاق والزواج ونحو ذلك . وألحوا على أن اتداخل فى الأمر حتى أجد حلا لهذه العقدة فتأثرت جداً مما قالوه لى فوعدتهم بأنى سأعمل جهد المستطاع .

تدبير الامر مع اللورد كتشنر

وفى اليوم الثانى قصدت دار المندوب السامى ، وطلبت مقابلة اللورد كتشنر عميد الدولة الانجليزية ، وعرضت عليه تفصيلات الأمر وقلت لجنابه ان هذه المشكلة عجز عن حلها بطرس باشا وجناب الخديوى ولكنى أعتقد ان اللورد كتشنر سيحقق المرغوب فاجابنى اللورد بكل بشاشة قائلا ، سيكون ظنك حقيقة مؤكدة . وطلب منى تقديم مذكرة بالأمر مع ذكر الطريقة التى ترى انها أوفق لعلاجه . وعليه قمت بجميع ما طلبه اللورد منى وبعد أن درس المذكرة ، قرر إعادة المجلس الملى بتعديل فى طريقة تأليفه بحيث يضم بين أعضائه طائفة من الاكليروس

وأمر اللورد ان نسير فى هذا الطريق برضاء البطريرك على انه كان مصمما انه اذا رفض البطريرك قبول رأيه ، على المضى فى طريقه من حيث تشكيل المجلس على أى حال ، فقمنا بالمأمورية لدى غبطة البطريرك واقنعناه بضرورة القبول حتى يكون

العمل كأنه منذ فقما غبطته ذلك بكل ارتياح . وكتب الى اللورد بقبول ذلك المشروع

نجاح باهر لم يستكمل !

فطربت لهذا النجاح الباهر فى تلك المأمورية التى ماقصدت من ورائها إلا خدمة الجمهور . وظللت مشتغلا فى وضع نظام جديد لهيئة مجلس ملى آخر ، ولما كان قد تصادف أثناء هذه الفترة ان دعانا السير ونجت حاكم السودان العام لحضور حفلة افتتاح كلية غردون بالخرطوم فقد أوعز إلى اللورد كتشنر بالاعتذار عن إجابة الدعوى وأظل مقيما بمصر حتى أباشر أمام مجلس شورى القوانين بحث مشروع المجلس الملى وصدور المرسوم بتنفيذه فأجبت هذه الرغبة وحضرت المناقشة فى هذا الموضوع بالمجلس إلى أن صدر به المرسوم ، وقد لوحظ فى وضع المشروع الجديد أن يكون من بين أعضاء المجلس الثلث من الاكليروس ، وأن كل قرار يصدره المجلس يعد نافذاً حتى اذا لم يوافق عليه البطريرك . ونص فيه أيضا أن يتكون مجلس مخصوص برئاسة البطريرك وبعضوية المطارنة والأساقفة لبحث ايرادات ومصروفات جميع الاوقاف الخاصة بالاديرة . ولكن للآسف لم يعقد هذا المجلس مرة واحدة ، ولم تراع مصلحة الاوقاف من حيث ضبطها وربطها بأى وجه من الوجوه بل ظلت نهبا لكل ذى نفوذ من الاكليروس ولقمة سائغة للطامعين . ! فاستمر المجلس قائما زمنا طويلا حتى توفى البطريرك إلى رحمة الله مبكيا عليه لانه كان مع تمسكه بالتقاليد والآراء القديمة وعدم الميل لاى جديد ، فانه كان قديسا يحب الفقراء والمساكين ، يعطف عليهم بكل ما يملك ، متواضعا متقشفاً ، فى أنفه وإباء ، حتى أننى أعلم أن المرحوم بطرس باشا كتب اليه مرة خطابا يطلب فيه منه تنفيذ أمر لم يكن يود عمله فرد عليه بعبارة حررها بقلمه ذاتيا فى أعلى خطاب المرحوم بطرس باشا وهاك نصها

« عرضت على مسامعنا عريضتكم ولا نوافقكم على ما جاء فيها » كيرلس

من هذا يتبين ان التواضع الكبير كان مقرونا بعظمة وأنفة يستخدمهما فى آوانهما.

فالرجل كان حريصاً على مركزه حفيظا لكرامته بأشد ما وسعه الحرص. حتى انه رحمه الله رحمة واسعة كان يرسل مندوبا ينوب عنه فى كل احتفال يدعى اليه

المتحف القبطى

نبذة تاريخية عن تأسيسه

ان منشىء المتحف القبطى هو المغفور له حسين فخرى باشا ، وقد دفعتنا الامانة التاريخية أن نتناول جانب الحقيقة فى هذه الناحية ، وضعاً للامور فى نصابها فنقول :

« بدأت فى الحقيقة فكرة جمع الاثار القبطية من مخطوطات وتحف واثار حوالى منتصف القرن التاسع عشر إلا أن روح الحياة لم تشيع فى هذه الفكرة السديدة إلا فى سنة ١٨٨٢ حيث بدأت تتخذ شكل مشروع تحت التنفيذ . اذ وضعت الكنائس القبطية الأثرية تحت اشراف لجنة حفظ الاثار العربية . وساعد بعد ذلك على تنفيذها تبعية الاثار المصرية على اختلافها لوزارة الاشغال التى كان (ناظرها) فى ذلك العهد المرحوم حسين فخرى باشا . الذى كان مولعاً بالاثار . والذى أولى هذه المسألة — أى انشاء متحف للاثار القبطية — عناية فائقة واهتماماً عظيماً .

« وكان عضد فخرى باشا — طيب الله ثراه — فى هذا الامر الجليل المرحوم هيرتس العالم الاثرى المعروف . الذى وضع تقريراً ضافياً رفعه لفخرى باشا ، وعرضه عليه فى اجتماع عقد فى ٤ يناير سنة ١٨٨٧ ، أثبت فيه أن الاثار القبطية مهملة فى اركان الكنائس المتهدمة وأن أمرها قد يؤول الى الضياع وانعدام أثرها انعداما كليا ، ان لم تتداركها يد الحفظ والعناية والتنظيم

« وبما أن مشروع وقاية الاثار القبطية من التخريب والضياع لا يتم الا بانشاء متحف لها على غرار متحف الاثار العربية فقد طلب المستر هيرتس من فخرى باشا ان يخابر غبطة بطريرك الأقباط فى ذلك العهد (المتنيح الأنبا كيرلس الخامس) لاجل الاتفاق معه على أنشاء متحف لها على نظام المتاحف الاثرية الاخرى فقبل غبطته

هذا الاقتراح بكل ارتياح واختار جناحا من كنيسة المعلقة ليكون متحفا للاثار ، وانتخب لإدارته المرحوم نخله بك الباراتى الذى كان فى ذلك الوقت ناظرا لكنيسة المعلقة وأن يعهد الى المرحوم نخله بك الباراتى فى اختيار جناح خاص لها فى بنـاء كنيسة المعلقة بمصر القديمة ، وبعد ذلك تقابل فخرى باشـا مع غبطة البطريرك السابق رحمه الله وتم الاتفاق بينهما على جمع هذه الاثار فى جناح خاص بالكنيسة المذكورة وأوكل أمر هذا المتحف الى نخله بك الباراتى

« فمن هذا يتبين أن مؤسس المتحف القبطى هو المرحوم فخرى باشـا لاسواه ، وكان له الفضل العظيم فى معاضدته ، كما كان البطريرك السابق دائب العمل من ناحيته على مافيه رفع شأنه . ولاصحة لما قيل ونشر من أن مؤسسه هو مرقص سميكه باشا

« ومما تجب الاشارة اليه أن جلالة المغفور له الملك الراحل العظيم فؤاد الأول قد رمق المتحف القبطى بعين رعايته وغمره بنفحـاته السـنية ، وأمر بوضعه تحت الرقابة الحـكومية كالمتاحف الأخرى ، وكان لمعالى حلمى عيسى باشـا وزير العدل السابق فى عهد توليـه وزارة المعارف فى السنوات الماضية فضل النهوض به ، إذ احتفل بضمه إلى الحكومة ، وأشار فى خطبة القاها فى ذلك اليوم ، إلى فضـل فخرى باشا فى تأسيسه ، وظل دائم العمل على تحقيق رغبة الملك فؤاد السامية ، حتى غدا يضارع دار الاثار المصرية ، والعربية وسار فى طريق التقدم أشواطا بعيدة

معالى حلمى عيسى باشا

هذه معلوماتى عن حقيقة تأسيس المتحف القبطى بسطتها للرأى العام ليلم بها شبابنا المثقفون ، ويذكرون الفضل لذويه

الاوقاف بين ادارة ونظارة

فى الجمعية التشريعية

وفى عهد الخديوى عباس علت الشكوى من الفوضى الضاربة بجرانهـا فى ادارة الاوقاف العمومية فلأجل حماية هذه المصلحة النافعة من التلاعب ، وصيانة لها من عبث العابثين ومنعاً للشكاوى أمر اللورد كتشنر بتأليف نظارة تدير الاوقاف حتى تكون بذلك تحت رقابة الحكومة — كما رأى أن حالة البلاد الزراعية تستدعى انشاء نظارة للزراعة — كما سبق القول — وفعلا تم تشكيل النظارتين فى وقت واحد فلما عرضت على الجمعية التشريعية ميزانيتهما مرت ميزانية نظارة الزراعة بغير معارضة ، وعند ما عرضت ميزانية نظارة الاوقاف . وقف المرحوم سعد زغلول باشا معارضا فى جعلها نظارة ، مطالبا بجعلها ادارة كما كانت ، ولما كنت رئيسا للجنة الميزانية بالجمعية التشريعية ، كان لابد لى من الكلام فقلت :

— إنى آسف شديد الأسف ان أسمع من سعد زغلول باشا هذا الاعتراض . وهو أعلم الناس بما وصلت اليه ادارة الأوقاف من الفساد وضياع حقوق الناس بالتلاعب فى ايراداتها ومخالفة شروط الواقفين ، والآن وقد أراد الله أن ننهض لحماية أموالها من التلاعب والفوضى ويقام فيها ميزان العدل . يطالب البـاشا بإعادة تلك الحالة السيئة التى ضج منها بالشكوى كل من فى الارض والسماء !! ان هذه النظارة ستؤدى أعمالا خيرية عظيمة للعالمين ، والواجب الانسانى يحتم على كل منا أن يدافع عن كيانها ويحرص على نظامها ، ويعارض فى زوالهـا ، وأظن أن حضرات زملائى أعضاء الجمعية الموقرين يوافقوننى على هذا الرأى — وفعلا قوبل حديثى بالتصفيق الشـديد والإرتياح العظيم ، من الاعضاء أجمعين

وقد حدث عند ارفضاض الجلسة أن تقابل معى المرحوم سعد باشا وقال لى لقد كسبت القضـية ياقليني باشا . فاجبته على الفور « انى على يقين يا باشا ان ضميرك مرتاح لذلك » !!

فابتسم فى هدوء قائلا الله الموفق ....

جيش الاحتلال والمدخولات

ومن الحوادث التى حدثت فى وقته كذلك أن دعانى يوما من الايام المستر متشل أنس . وكيل المالية وقتها . وقال لى . لماذا تأخذ عوائد على جيش الإحتلال ولا تأخذ عوائد على الجيش المصرى ؟ فقلت له ، أنا أسير حسب القوانين ، وعندى مرسوم بذلك ، فان أردت أن تعفى جيش الاحتلال فاسع لاستصدار مرسوم . فقال لى . كلامى يكفى ، فقلت له كلامك ليس قانونا !! فقال لى . اذن نحن غير متفقين افقلت له نعم . لإنك تريد أن تخالف القانون ، وأنا أريد التمسك باهداب القانون . فغضب منى ورفع الأمر الى السير غورست الذى كان آنئذ مستشارا ماليا فضحك منه كثيرا وقال له . الحق فى جانب قلينى باشا . واخيرا دعانى السير غورست وقال لى . لماذا أغضبت متشل أنس ؟ فقلت له ، هو يريد ان أسير مخالفا للقانون . وأنا وظيفتى تضعنى فى مركز الحارس الأمين على القانون . فقال نعم . الحق بيدك !! ولكن نريد حلا لهذه المسألة بدون الإلتجاء الى استصدار مرسوم ؟ فقلت له . نعم يمكن إيجاد طريقة . الحكومة المصرية تدفع لجيش الاحتلال مبلغا سنويا على سبيل الإعانة فإذا كان جيش الاحتلال يتنازل عن الفى جنيه من المقرر له من الحكومة ، فى نظير معافاته من عوائد الدخولية يمكننا أن نكتفى بقرار وزارى فى هذا الموضوع و ننفذ رغبة المستر متشل أنس ، فاعجبه هذا الحل كثيرا وعمل به ....

طائفة الكيالين

ومن المسائل أيضا التى حدثت فى ذلك العهد ، انه كانت توجد طائفة شريرة جداً تغتال حقوق البائع والشارى . وهى طائفة الكيالين ، فبناء على التماس مجلس شورى القوانين . قد عملت على استبدال الكيل بالوزن بعد ان عملت معدلات دقيقة — فشكا الكيالون من ذلك ، فلكى أعمل لمرضاتهم استخدمتهم كشيالين ينقلون الغلال من المراكب ويضعونها على الموازين . ويأخذون ذات الأجور التى

كانوا يتقاضونها على الكيل ، فامتنعت شكواهم وانتظم العمل . فعز هذا الامر على المستر متشل أنس وكيل المالية — الذى قلت انه كان رجلا شريرا ويسعى للشر أينما وجد — فرفع تقرير ضدى أراد ان ينال به منى للورد كرومر قال فيه . ان قلينى باشا أصبح يخشى من عواقبه لأنى أرى فيه خطرا جسيما . حيث ان كلمة منه قضت على شكاوى فئة الكيالين وأجبرتهم بالخضوع والإستكانة خوفا من بطشه ، مع ان تلك الفئة مشهورة بانها فئة شريرة وعنيدة جداً ولا تقبل الخضوع لأى أمر حكومى

ولما كان جناب اللورد رجلا حكيما بعيد النظر فقد دعاه وقال له . بدلا من ان تشكر موظفا على حسن سياسته فى اخماد الفتنة وتنظيم العمل . تتهجم عليه بهذه الالفاظ الدالة على قصر النظر ؟ أنا مرتاح جدا لما فعله قلينى باشا . وقد كتبت له خطابا أشكره على ذلك الجهد العظيم !!

الرتب والنياشين

وكان يعزى للخديوى أنه يتصرف فى الرتب والنياشين تصرفا واسعا حتى ضاعت قيمتها ، فتداخل اللورد كتشنر فى الأمر ، وأوعز للخديوى بأن يكون منح الرتب والنياشين لمن يقوم بأعمال ممتازة للبلاد ، وعلية فهو يشير عليه بالكف عن التوسع فى منحها ووافق جنابه العالى على قبوله هذه المشورة

سمو الخديوى عباس والخلافة

وكان سمو الخديوى عباس شغوفا بأن يكون يوما من الأيام ، خليفة للمسلمين ، واستخدم لتحقيق الغرض وسائل جمة ، منها استخدام نفوذ مسلمى الشام والاناضول وأنفق مبالغ طائلة فى هذا السبيل . وكان أول من دفعه لهذه الفكرة الشيخ محمد عبده ولكنه بعد جهاد طويل ، خاب أمله ولم ينجح قصده ، وترتب على ذلك ، ان الباب العالى علم بكل وسائله ، فاراد التخلص منه ، واعتقد انه تم شبه اتفاق بين السلطنة العثمانية واللورد كتشنر ممثل الدولة الانجليزية ، على عزل الخديوى ، وتعيين البرنس حليم ، الذى كان الصدر الأعظم للسلطنة ، خديويا لمصر . ولكن قامت عراقيل فى

الطريق فلم يتحقق الامر . ولما كانت للخديوى عادة سنوية هى الطواف بأوربا وتركيا ، نصح له بعض المقربين اليه بعدم زيارة تركيا فى ذلك العام ، حيث أصبح مكروها فيها ويخشى على حياته من خطر الاغتيال ، فلم يصغ لهذه النصيحة . وسافر فعلا اليها كعادته . وفى ذات يوم أثناء زيارته للباب العالى أطلق عليه الرصاص وهو خارج من السراى فاصيب بأصابات خطرة ولكنه نجا من الموت بعد علاج طويل وتنقل بعد ذلك بين ممالك أوربا كعادته ثم تصادف اعلان الحرب الكبرى سنة ١٩١٨ — مما أفضى فى النهاية إلى حرمانه من حقوقه فى تولى العرش — وكان ذلك بمسعى كتشنر فى عهد وزارة المرحوم حسين رشدى باشا الذى كان فى آن واحد قائم مقام الخديوى حال غيابه عن مهام عمله وأوعز مرارا للجناب الخديوى عند بداية الحرب بأن يعود الى مصر حالا ويتحفظ بعرشه مبتعدا عن ميدان الحرب فى أوروبا ودسائسها فلم يصغ لنصائحه فكان ما كان مما شرحته فى كلمات قلائل

عظمة رشدى باشا

وبهذه المناسبة نذكر ان المرحوم حسين رشدى باشا كان أقدر رجل فى علمى السياسة والقانون وكان رأيه حجة فى كل معضلة مع ما تحلى به من الصفات الرفيعة . رقيقا متواضعا ، قل ان يوجد نظيره الان ، وهو الذى رأس لجنة الدستور فى عهد جلالة الملك فؤاد الأول . وكانت آراؤه سديدة جدا فيعود أكبر الفضل اليه فى نجاح تلك اللجنة التى كنت من أعضائها

من ذيول الحرب الكبرى الماضية

وبعد ذلك تولى الحكم المغفور له السلطان حسين كامل ، وكانت أيامه فى الحكم معدودة . وحصل انه عند ما شبت نار الحرب العالمية ان وشى للحلفاء الواشون فى ان سمو الامير الجليل عمر طوسون . معاند لهم ، متآمر معهم راكش وتونس والجزائر ضدهم وانه يمد أعداءهم هؤلاء بالأموال والاسلحة . وكنت أذ ذاك أنا أيضا باوربا . فلما عزمنا على المجىء لمصر ، كان قد سبقنى سمو الأمير عمر

لمارسيليا ، وأنا وآخرين من المصريين لحقنا به اليها على نية قيامنا جميعا لمصر ، ولكن بمجرد وصول سموه الى الميناء حجزته السلطة العسكرية ، وأمرته بعدم الرحيل الى مصر فلما وصلت أنا الى مارسيليا ، عدته لما بينى وبين سموه من أواصر الصداقة المتبادلة ، فرد لى الزيارة بالفندق الذى كنت نازلا فيه ، ولما كان سموه محاطا بعدد من الجواسيس فقد اتخذوا من هذه الزيارة ذريعة لأن ينسبوا الى ما نسبوه لسموه فصدرت

سمو الامير الجليل عمر طوسون

لى أنا أيضا أوامر أخرى من البوليس بعدم مبارحتى لمارسيليا وعدم عودتى الى مصر ، فهالنى هذا الامر جدا من تلك المعاملة التى لم أعرف لها من سبب ، فتظلمت لرئيس الجمهورية الفرنسية ولوزير خارجيتها وكان إذ ذاك المسيو ديلكاسيه ، وكنت أعرفه شخصيا ، كما تظلمت للورد كتشنر الذى كان وقتها وزيرا لحربية انجلترا . وبلغت المرحوم حسين رشدى باشا الذى كان رئيس الحكومة المصرية وقتها وبعد زمن صدر لى الإذن بالسفر الى مصر ، فسررت كثيراً لحل هذه الأزمة . ولكن سرورى لم يدم طويلا ، إذ بمجرد ركوبى الباخرة عاد الى فى منتصف الليل رئيس البوليس السرى وأمرنى بالنزول منها واخذنى فى سيارة مسلحة واخبرنى أنه صدرت اليه أوامر جديدة تخالف التصريح الذى أعطى لى . وقال . أى الفنادق تريد السكنى فيها ؟ فقلت له . الفندق الذى يقيم فيه سمو الامير . فقال أنصحك أن لا تفعل !! لأن فى هذا الامر صعوبة وهو ليس فى صالحك ، فقلت له ، أنا متهم بذات التهمة الموجهة لسموه فلا داعى لإنفرادى بنفسى بعيدا عن انسان أحبه يسلينى ويسرنى ، فما يجرى عليه يجرى على والامر لله !!

وعلى ذلك سارت بنا السيارة مسرعة الى الفندق الذى كان به سمو الأمير ،

وفى الصباح دهش سموه كثيراً ، لما رآنى فقصصت لسموه ماجرى . فتكدر جد أما أنا فقد عدت فكررت الشكوى حتى أنفقت على البرقيات التى أرسلتها لهذا الغرض كل ما كان معى . وبعد مضى مدة كنا محاطين فيها بالجواسيس أينما ذهبنا صدرت اوامر جديدة بالسماح لى بالعودة إلى مصر . وعند ماوصلت إلى أرض الوطن ، أراد الامير حسين (السلطان حسين فيما بعد) مقابلتى ليستعلم عن حالة البرنس عمر فترددت بل رفضت المقابلة خوفا من أن يتالنى ضرر جديد خلاف الضرر الذى مسنى بسبب الامير — وبعد ان اطمأننت تشرفت بمقابلة عظمته فعاتبنى على التأخير فعرضت عليه السبب . وأخيرا قال لى . ماذا ترى فى حل مشكلة الأمير عمر؟ فقلت . أن سموه يعلق كل آماله على همتك ويعتبرك كبير العائلة . ويترك لك الامر للعمل على نجاته من هذه الورطة . فقال لى . إنى فعلت كل ما أستطيع ولكن لم تزل بعض العقبات أمامى؟ فقلت له . هل استعنت باللورد كتشنر ، فأنا أعرف أنه ذو همة عالية ، ومروءة كبرى ولو طلبت اليه المعاونة لاجاب طلبك ! فقال . هذا آخر سهم عندى ، فاخشى أن استعمله الان فيخيب أو يطيش ! ولذلك إنى سأبقيه للفرصة المناسبة. وتحدثنا أخيراً فى أحوال أخرى واستأذنته وانصرفت

وظل الامير يجاهد وساعده على ذلك توليته على العرش المصرى ، وحينذاك أمكنه انقاذ سمو الامير عمر من موقفه الحرج الذى كان فيه وقدم لمصر معززا مكرما

وهذه حسنة من حسنات المغفور له السلطان حسين ، وسنأتى على صفاته وأعماله جملة وبيانا عند ذكر تاريخه . . .

الاميرة نازلى هانم فاضل

والسلطان عبد الحميد

ومن الحوادث التى حدثت فى زمن سموه ، أن « البرنسيس » نازلى هانم فاضل وهى الاميرة الوحيدة التى كان لها صالون تقابل فيه رجال السياسة والوزراء والأدباء وكبار القوم . وكانت ذكية جداً ومثقفة ثقافة عالية وملمة بالسياسة العامة فى العالم ، وغيورة للغاية فى الحرص على مصالح مصر وتركيا بنوع خاص — أن هذه الأميرة ترجمت كتابا للمرحوم مصطفى فاضل باشا والدها ضد مظالم السلطان عبد الحميد وتصرفاته المخزية فى تركيا . وطبعته فغضب لذلك السلطان وطلب من سمو الخديوى أن يسترضيها بكل مالديه من الوسائل وبجميع مافى ميسوره من المغريات ، مع جمع الكتاب وارساله لجلالته ففعل سمو الخديوى ماطلبه السلطان . وكانت دائماً وأبداً تذم تصرفاته وتعيب عليه جميع أعماله ، وأخيراً دعاها جلالته لاستانبول ، فنصحها جميع أصحابها بعدم السفر ، — وأنا منهم — خوفا عليها فلم تسمع النصيحة ولبت الدعوة وذهبت للاستانة ، ولكنها احتاطت لذلك كل الأحتياط فبمجرد وصولها الأستانة ، ذهبت مباشرة لدار السفير البريطانى ونزلت عليه ضيفة كريمة ، وفى اليوم التالى لوصولها توجهت للسراى السلطانية وكان بصحبتها مندوب من قبل السفير ، فبمجرد أن علم بذلك جلالة السلطان قابلها أحسن مقابلة ، وأنعم عليها بكثير من الهدايا والعطايا وعادت معززة مكرمة إلى مصر . فتوجهت لزيارتها والسلام عليها ، فوجدت لهجتها قد تغيرت نحو السلطان ، وأصبح كل كلامها نحوه بالمديح وآيات التقدير بعد ان كان بالطعن والتشهير . فقلت لها : سبحان من يغير ولا يتغير ! ماهذه لهجة كلامك قبل توجهك للاستانة . فقالت : أجيبك عن سبب ذلك فى الحال ! ؟ . . . وأمرت أحد توابعها أن يحضر صندوقا من حجرة نومها وقالت . (وقد فتحته أمامى وفيه مايبهر الأبصار من جواهر كريمة ولآلىء ثمينة وأحجار من الماس وذهب خالص) ياحبيبى هذا ما أوجب تبدل لهجتى نحو جلالة مولانا الخليفة ! فضحكت كثيراً .

الاميرة نازلى هانم فاضل

صاحبة أول صالون

ومن نوادرها الغريبة انه عرض عليها من قبل الوزارة أن تتزوج بأحد الوزراء المشهورين وكان المرحوم فخرى باشا فرفضت . وعرض عليها أن تتزوج بأحد الأمراء فرفضت أيضاً . وأخيراً قامت بسياحة إلى الخارج . وفى أثنائها عرجت على تونس فأعجبها شاب تونسى اسمه «بوحاجب» فتزوجت به فى الحال . وهذا الشاب هو نجل قاضى المحكمة الشرعية بتونس . ثم عادت لمصر فقالت لى .

— ماذا يقولون يا باشا عن زواجى بالتونسى ؟ لاسيما بعد أن رفضت وزيرا وأميرا ! فقلت . يا رنسيسة يقولون عنك انك مجنونة ! فضحكت كثيراً وقالت . ما أعظم سرورى لسماع ذلك ألا تعلم أن كل الناس مجنون . . — كما يقول الشاعر — فاندهشت لسرعة الخاطر وعظيم الذكاء اللذين اكتستنى بهما .

وكان لها نوادر كثيرة من هذا القبيل . وكانت تحب ركوب الخيل كما كانت جميلة الطلعة ، حلوة الحديث ، لايشبع أحد من مجلسها . وتحب كبار القوم وأدبائهم وطوائف العلماء ، ورجال السياسة ، محترمة لدى الجميع . وكان اللورد كرومر يعزها ويقدرها جدا ويحب زيارتها كثيرا .

الانعام برتبة رومللى بلر بك

ومن المسائل المعروفة التى حصلت فى عهده أنه عند ماتوفى المرحوم بطرس باشا غالى ، استقر رأى سموه مع اللورد كتشنر عند تعيينه مندوباً ساميا لدولة بريطانيا بمصر . ان الذى يكون خلفاً للمرحوم بطرس باشا هو «قلينى باشا» وفعلا أرسل سمو الخديوى وفداً يهنئنى بذلك وكان هذا الوفد مؤلفا من الشيخ على يوسف ، واسماعيل باشا أباظه وشوقى بك أمير الشعراء وحامد بك العلايلى — رحم الله من مات منهم — كما أن اللورد أرسل لى تهنئة بأيفاد أحد موظفى فخامته إلىّ .

كل ذلك حصل ولم يكن لى مسعى فيه ولا علم به سابق — فقدرت ثقتهم بى تقديراً عظيما وقدمت التشكرات ولكن لم يرق هذا العمل فى نظر رئيس النظار وكان وقتها محمد سعيد باشا فعمل جهد المستطاع لعدم نجاح هذا الأمر ؛ فقال للورد كتشنر عنى إنى رجل الخديوى ، وانى سأعمل كل ما يرضى الخديوى ، وتلك عقبة فى طريقنا — ثم قال للخديوى عنى . انى رجل كتشنر وسأعمل ما يرضى رغبات كتشنر ، وتلك عقبة

أمامنا — وزاد على قوله هـذه العبارة ، انى لا أنكر أن قلينى باشا أقدر اللائقين لهذا المنصب وأعظمهم نفوذاً ونشاطا ، ولـكن وآسفاه لقد أبديت ما أعرفه فى أمياله حتى لا تلومونى فيما بعد ، فكان ذلك موجبا لانقياد الجهتين لفكرته وصرف النظر عن اتمام ما وعدنا به

ونظراً لأن الجهتين كانتا مرتبطتين بتهنئتيهما لى ، ففكرا فى الانعام على برتبة روملى بلر بك وهى أكبر رتبة فى الحكومة المصرية كانت لا تعطى إلا لـكبار الوزراء . هذه هى مسألة الانعام برتبة روملى بلر بك ...!!

أعمالى خارج الحكومة

خدمة مصر شعارى

منذ اعتزلت خدمة الحـكومة وأنا لم أبرح ميدان الخدمة العامة فلم يمر على يوم إلا وأنا دائب فى العمل لكل مافيه خير البلاد مضحياً فى سبيل خدمتها براحتى باذلا من أجلها كل مرتخص وغال من الجهد والمـال جاعلا رائدى مصلحة المجموع ، بعيدا كل البعد عن الجرى وراء الاحزاب ، مستقلا بفـكرى وروحى عن القيود التى تفرضها الحزبية فى بلادنا عمن يعتنقونها ، لأن شـعارى هو على الدوام خدمة مصر العزيزة

مبادئى هى الديمقراطية

فانا رجل عشت حياتى الطويلة ، حر الفكر ، لانى ديمقراطى المبـدأ ، وشغفى بالاصلاح كان يوقد فى صدرى شعلة متقدة ، فجعل منى دولاب عمـل لا ينفك عن الدوران ، لا يهمد ، أو يخمد لحظة من اللحظات . اذ انى لم أتبع سنة أرباب المعاشات من الانكماش عن العمـل ، بل ظهرت مواهبى فى ميدان العمل الحر أكثر من قبل ، ووجدت أن خير مجال لى أستطيع أن أؤدى منه أعظم خدمة لبلادى هو الميدان الاقتصادى الذى شغفت به حباً ، وتعلقت بدراسته تعلقاً كبيرا . ووجدت من

اختباراتى الطويلة ما يحفزنى على اسداء النصيحـة الخالصة لأبناء وطنى ، فميدان الاقتصاد هو الميدان الحيوى ، الذى تنهض عليه عظمة الامم ، ولما كانت بلادنا بلادا زراعية فقد التفت الى الاقتصاديات التى تتصل بالزراعة . وإنى أذكر ما استطعت تأديته لبلادى من الخدمات فى هـذه الناحية الهامة ، وكلها مذكورة بالصحف اليومية .

انشاء بنك التسليف الزراعى

(١) كنت أول من جاهد لانقاذ الفلاحين وصغار المزارعين من براثن المرابين بالمطالبة بانشاء بنك التسليف الزراعى المصرى ، وظللت أجاهد من أجله فى عهـد حـكومات متعددة مدة تتراوح بين ٢٢ و٢٥ سنة كاملة ، حتى تحققت مطالبى وليس هناك من ينكر مدى مايؤديه هذا البنك من الخدمات لابناء البلاد

حل مشكلة الديون العقارية

(٢) كنت أول من رفع الصوت مطالبا بالعمل على ايجاد حل لمشكلة الديون العقارية حفظا لثروة البلاد من الضياع والانهيار وقد ظللت أجاهد فى هـذا السبيل بمختلف ألوان الجهاد فى البرلمان . وعلى صفحات الجرائد ، وبرفع الاقتراحات وتنوير أولى الامر . حتى وصلنا للنتيجة الحالية . بتحديد الفائدة الى ٤ فى المائة فقط بعد ن كانت ضعف هذه القيمة

(٣) جهودى العامة فى الجمعية التشريعية . وفى المجلس الاقتصادى الاعلى بوزارة المالية ، والمجلس الاستشارى لوزارة الزراعة . وفى جمعية فؤاد الاول للهلال الاحمر وفى النقابة الزراعية المصرية وفى مجلس الشيوخ السابق ، كلها تنطق بمدى حرصى على كل ما يكفل الخير للبلاد

(٤) وفى طليعة اقتراحاتى العامة ما يلى .

أولا — المطالبة بإعادة النظام الخاص بمفتشى عموم الاقاليم . وهو الذى سـبق أن أقرته وزارة رفعة على ماهر باشا . وأهمل الآن . إذ من المعلوم أن المهام المتعددة الملقاة على عاتق وزير الداخلية لا تعطيه الفرصة الـكافية لمراقبـة أعمال الموظفين .

والاشراف على تصرفاتهم فى الاقاليم . ولذلك كانت توجد فى الماضى وظيفة «مفتش عموم أقاليم قبلى» ووظيفة «مفتش أقاليم بحرى» وكان كل منهما حائز لسلطة الحاكم العام . وكان من اختصاصهما دوام التجوال فى المديريات . والتفتيش على الاعمال الادارية . وتفقد الأحوال العامة . وسماع الشكاوى . وفض المشكلات . وبذلك كنا نكفل استمرار وجود رقابة فعلية على حكام الاقاليم وموظفيها مما كان له أحسن الأثر

ثانياً — محاربة التسول فى البلاد . لأنه وصمة عار فى جبينها . لانه لوحظ أنهم منتشرون انتشارا مروعا فى أحياء العاصمة والاسكندرية وعواصم الاقاليم بحالة تثير الألم وتوجب الالتفات وقد صدر قرار البرلمان بتنفيذ ذلك — واذا كان قد أهمل الان فهذا ذنب الادارة — ولا زلت أنادى بإدخال هؤلاء المتسولين وأمثالهم فى الملاجىء حتى نقضى القضاء المبرم على التسول . وبذلك يتم تطهير البلاد من العيوب الباعثة على احتقار الاجانب لنا

ثالثا — المطالبة بتعميم نظام جعل خدمة الخفراء بالبلاد . خدمة عسكرية . أعنى ان يعين بدلا من الخفراء الحاليين . عساكر سواء أكانوا من الريف أو من غيره تحت إشراف ضباط عسكريين بحيث تعتبر خدمة الخفراء بالبلاد خدمة عسكرية بحتة . وذلك لحفظ الأمن واستتباب النظام فى الاقاليم والقرى حتى تتطهر البلاد من الاجرام والسرقات وحوادث القتل

رابعا — المطالبة باتحاد الأحزاب جميعها والعمل على ادماجها فى كتلة واحدة . على غرار ما كانت عليه الأمة فى زمن «الجمعية التشريعية» التى أدت أجزل الخدمات لأن قوى البلاد كانت موحدة متضامنة بعيدة عن التفرق، والتنابذ الذى لا طائل تحته

وقد اتضح لنا أن هذه الاختلافات فى الأحزاب ماهى إلا للوصول الى الحكم .

فأما أن تندمج الاحزاب كتلة واحدة وتسير على مبدأ واحد ، أو أن يقضى عليها نهائيا من الوجود . ولا سيما فى الأوقات الحرجة ، وخطر الحروب مخيم على ارجاء الشرق بشبحه المفزع والبلاد أحوج ما تكون الى جبهة قوية يخشاها العدو ويحترمها الجار ويقيم لها الاعتبار .

خامسا — العمل على تشييد تماثيل تذكارية للعظماء الذين خدموا مصر خدمات لا تنسى أمثال المغفور له عدلى باشا . وثروت باشا . ورشدى باشا . ومحمد بك فريد

وشريف باشا . ونوبار باشا . وسلطان باشا . وعلى مبارك باشا . ورفاعه بك، وغيرهم من الاعلام الذين كانوا مبعث خير لمصر — فيكونوا أحسن مثال للشباب يقتدون بهم فى خدمة البلاد . ونكون قد قمنا بالواجب علينا نحوهم كما تفعل الأمم الراقية — لا سيما بعد أن شيدت تماثيل لبعضهم

استكمال وسائل الدفاع الوطنى

طالبت باستكمال أسباب الدفاع الوطنى لان من مستلزمات الاستقلال الذى جاهدت البلاد لاجله وحققته بكل تمجيد ضرورة انشاء جيش عظيم وايجاد بحرية قوية ، بالبلاد يتناسبان مع ما نالته مصر من المكانة العالية بين الامم ويتفقان مع ما كان لمصر من مجد قديم عريق وشهرة واسعة ملأت آفاق الدنيا ، وأقرب العهود الى الذهن عهد ساكن الجنان المغفور له محمد على باشا الكبير الذى امتدت فتوحاته العظيمة بجيشه المصرى المجيد الى أن بلغت أبواب استامبول مما أعلى جيش مصر الظافر ورفع ذكر بحريتها القوية

وحيث ان تحقيق هذه الشؤون تستلزم نفقات طائلة . وأموالا ضخمة . فقد فكرت فى أنجع الوسائل لايجاد مصدر جديد يقوم بسد هذه النفقات من غير اثقال على خزينة الدولة ، ومن غير ارهاق لاحد من أفراد الشعب فوقفت الى الرأى التالى

من المعلوم أن سكان مصر بحسب التعداد الاخير هو ١٧ مليون نسمة فاذا فرضنا أن عدد الذين يدخنون منهم ٤ مليون شخص وفرضنا أن متوسط ما يستهلكه الفرد منهم على أقل تقدير هو قرشان فى اليوم

فاقتراحى فى هذا الموضوع هو أن يفرض على المدخنين الاستغناء عن التدخين يوما واحدا فى الاسبوع ويخصص دخله للدفاع الوطنى على اعتبار قرشين لكل فرد من أربعة ملايين

وعلى هذه القاعدة يتوفر فى الاسبوع الواحد ٨٠ ألف جنيه وفى الشهر باعتباره أربعة أسابيع ٣٢٠ الف جنيه وفى السنة باعتبارها ١٢ شهرا ٢ مليون و ٨٨٠ الف جنيه — وهذا المبلغ ان لم يكن كافيا فيستمر العمل به سنة أخرى على أساس هذه

القاعدة الى أن تستكمل جميع المطالب الخاصة بانشاء جيش عظيم وانشاء البحرية والطيران الحديث وجميع وسائل الدفاع الوطنى فاذا تم ذلك ، كان فيه أعظم مجد لمصر

وقف سداد أقساط البنوك العقارية مدة الحرب

طالبت بوقف سداد أقساط البنوك العقارية مدة الحرب ، إذ لا ريب أن تحديد مساحة الزراعة القطنية فى البلاد قد حرمها من أهم المحاصيل التى ترتكن عليها فى الوفاء بالتزاماتها وتعهداتها قبل البنوك والشركات وغيرها وتحديد زراعته قد أعجز الاهلين عجزاً تاماً عن سداد أقساط البنوك العقارية التى تستغرق . على أقل تقدير نصف غلة الأرض . لذلك أرى أن السبيل الوحيد لانقاذ البلاد ، والتخفيف عن أهاليها هو العمل على إستصدار مرسوم (مرتوريوم) بوقف سداد أقساط البنوك العقارية مدة الحرب ، أسوة بما فعلته الدول الاوربية فى هذا السبيل ، مثل الدنمرك ورومانيا وهنغاريا والسويد وغيرها

تضريج أزمة المتعلمين العاطلين

مشكلة المتعلمين العاطلين : تشكو البلاد من تكاثر عدد الشبان العاطلين من خريجى المدارس على أنواعها . ولقد سبق ان اقترحت على الحكومة أن تعمل على إعطائهم الاقطاعيات الزراعية من أرضها لخريجى مدارس الزراعة . وقد نفذت الحكومة هذا الاقتراح ، ولو انها لم تتوسع فى تنفيذه إلا فى حدود ضيقة . مع ان الواجب يقضى بتوسيع نطاقه ، لأن دواوين الحكومة لم يعد بها أمكنة خالية يشغلها هؤلاء الشبان المتعلمون

واقترحت أيضا فيما يتعلق بخريجى مدارس الصناعة والتجارة ، لتشجيعهم على الاعمال الحرة ، ان تمد الحكومة كل فرد منهم بسلفة لا تتجاوز خمسين جنيها كرأس مال له يقوم به فى الحياة ، معتمداً على ذكائه وتجاربه . وان يترك له حرية اختيار العمل الذى يوافقه ، ثم يضاعف هذا المبلغ لكل من يبدى منهم نشاطاً واستعداداً حسناً ، ويأتى بنتيجة طيبة فى عمله

والغرض الذى قصدته من ذلك هو أن لا يكون هذا الجيش الجرار من الشباب المتعلم عالة على الحكومة والأمة . ولا سيما انه يتكاثر عاماً بعد عام . واعتقادى أن الحكومة اذا نفذت هذا الشطر من الاقتراح كما نفذت الشطر الخاص بالاقطاعيات الزراعية تكون قد أسدت للبلاد أجل الخدمات لاستخدامها هذه الأيدى الفتية التى يجرها التعطل على الركود ، والوطن فى حاجة إلى أن تساهم فى بناء مجده العالى

المطالبة ببيع أراضى الاملاك الاميرية

كذلك طالبت فى اقتراح ، ببيع الاملاك الاميرية الأهليين ، وبذلك تزيد رفاهيتهم . وتزداد ثرواتهم . وفى الوقت نفسه تستفيد الحكومة بأثمانها ، وما تجبيه عنها من الاموال والضرائب ، وتقتصد مبلغ مليون ونصف مليون من الجنيهات كانت تنفق سنويا على ادارتها

الاصلاحات الاجتماعية

ولى عدة اقتراحات فى النواحى الاجتماعية تقدمت بها للهيئات الحكومية وكان لآرائى فيها أثرها لدى المسئولين منها اقتراحى الخاص بإلغاء جميع المجالس الملية ، والمحاكم الشرعية وتحويل اختصاصاتها على المحاكم الاهلية — على أن تنشىء محكمة شرعية واحدة لكل طائفة ، تنظر فى مسائل الطلاق والزواج وما يتبعها .

كذلك اقترحت تخفيض مرتبات الوزراء ، كما هو جار فى الامم الديمقراطية ، وقصر المرتب على أربعين جنيهاً فى الشهر لان هذه المناصب تقليد لا تخليد ، والغرض منها هو خدمة البلاد

وكذلك طالبت بالغاء مرتبات أعضاء البرلمان ، والاكتفاء فى امتيازاتهم ، على منحهم امتيازا بالسفر المجانى على السكك الحديدية وأيضاً طالبت بالغاء السيارات الحكومية التى تكبد خزانة الحكومة نفقات باهظة ، هى من عرق جبين الفلاح المسكين وهى بدعة جديدة لم تعرفها الحكومات قبل

فى التواحى الاقتصادية

أما صيحاتى ، واقتراحاتى المتعددة ، كلما جدت فى البلاد مشكلة من مشكلات القطن والحبوب والمحاصيل الرئيسية الاخرى ، فهى واضحة للعيان ، على صفحات الصحف اليومية ، يعرفها الجميع

فى عالم المبرات

وقد وفقنى الله ، بنعمته وكرمه إلى وقف الجانب الاكبر من أطيانى وأملاكى وقفاً خيريا ، وانى أترك الحديث عنه مكتفيا باثبات مانشرته صحيفة « الاهرام » الغراء فيما يلى :

« أوقف صاحب السعادة قلينى فهمى باشا أغلب أطيانه على وقفه الخيرى المرصود على الاعمال الخيرية دل على مدى اتجاه مبادئه الى الصالح العام وخير الانسانية »

فقد أوقف قصره بحلوان الحمامات المشيد فى مساحة قدرها ٥٠٠٠ متر مربع على جمعية فؤاد الاول للهلال الاحمر المصرى ليكون مستشفى للسيدات الفقيرات ، وأوقف عليه ٥٠ فدانا يصرف ريعها للانفاق عليه من ايرادها كما أوقف منزله الجميل بمغاغه ليكون مستشفى لرعاية الطفل ودارا للولادة تابعا لوزارة الصحة وأوقف له ٧٥ فدانا زراعية يصرف ريعها للانفاق عليه من ايرادها ، وأوقف ريع ٣٠ فدانا للجمعية الخيرية القبطية بالقاهرة ومستشفاها القبطى . وأوقف ريع عشرة أفدنة على كنيسة طحا الاعمدة المدفون بها جده المرحوم يوسف بك عبد الشهيد . كذلك أوقف ريع ٧٧ فدانا على كنيسة ومنامة ومسجد قلينى فهمى باشا بمغاغه

كذلك خص سعادته الجمعية الخيرية الاسلامية بمصر وجمعية التوفيق القبطية بمصر وملجأ جمعية السلام الخيرية للفتيات اليتيمات بشبرا مصر . وجمعية ثمرة التوفيق القبطية بمصر ومدرسة قلينى فهمى باشا بطحا الاعمدة . وملجأ الأيتام القبطى بمصر وكنيستى دمشير وصفط اللبن القبطيتين — جميعها بمبلغ مائة جنيه تصرف لها سنويا معاونة

منه للأغراض الخيرية التى يعم نفعها الاهلين على اختلافهم من جهود هذه المؤسسات الانسانية النافعة

وتشجيعا للنهضات الادبية والثقافية خصص سعادته من إيراد الوقفين الاهلى والخيرى مبلغ خمسين جنيها للشعراء وناظمى أجود القصائد فى المناسبات التذكارية سنويا . ومائة جنيه سنويا لتعليم الطلبة الفقراء بمدرسة مغاغه الاميرية للبنين المشيدة على وقفه وثمانية وأربعين جنيها لتعليم فتيات يتيمات بمدرسة الاميرة فائزة للبنات بمغاغه المشيدة على وقفه وخمسين جنيها جوائز للمتفوقين من طلاب المدارس الابتدائية الثلاث المشيدة على وقفه السابق التبرع به لمجلس مديرية المنيا الذى قدر ثمنه بأربعة وعشرين الف جنيه ، والتى سبق أن وضع الحجر الاساسى لها المغفور له الملك فؤاد طيب الله ثراه .

كذلك تبرع أخيرا لوزارة الصحة العمومية بقطعة أرض مساحتها ١٣٠٢٥ مترا مربعا لبناء مستشفى عام لاهالى مركز مغاغه قدر ثمنها بـ ١٣٠٢٥ جنيها مصريا

فنثنى على سعادة قلينى باشا ونرجو أن يكون فى أعماله خير قدوة للاغنياء وذوى اليسار »

كلمتى بين يدى الملك فؤاد

وإنى أورد فيما يلى نص الخطبة التى ألقيتها بين يدى المغفور له الملك فؤاد يوم تشريفى بزيارته الكريمة وتفضله بوضع الحجر الاساسى لمدرسة الاميرة فائزة بمغاغه

مولاى صاحب الجلالة :

إن تشريف جلالتكم بتفقد هذا الجانب من مملكتكم العزيزة قد ملأ هذه الآفاق نورا وأفعم قلوب الاهلين فرحا وسرورا . ولقد سمحت رغبتكم الملكية أن تجعلوا طوافكم المبارك فى بلادكم العزيزة وسيلة لظهور المشروعات المفيدة . وان هذا اليوم السعيد الذى تنازلتم فيه بان تضعوا بيدكم الكريمة حجر الاساس لمدرسة الاميرة فائزة للبنات لهو يوم سعيد مبارك بل هو أسعد أيام حياتنا وعيد من أكبر أعيادنا

مولاى ، إن عبدكم الماثل بين يديكم لما رأى فى مقدمة عنايتكم الملكية العناية

بشأن التعليم وتعميمه بين طبقات الامة بوساطة انتشار المدارس ورغبتكم السنية فى تخفيف ويلات الانسانية بوساطة انشاء كثير من المستشفيات وجد فى تلك العشية إلهاماً للمبادرة الى وقف أرض مساحتها ٢٤ الف متر لتشيد عليها هذه المدارس التى تشاهدونها جلالتكم وبجانبها مساكن خاصة شيدتها على نفقتى لتكون مأوى لطلبة هذه المعاهد يبيتون فيها ويلجأون اليها بعد الفراغ من اعمالهم المدرسية ، كما انى أوقفت قصرى الكائن بهذا الجانب ليكون دارا لرعاية الطفل والولادة لتخفيف ويلات الانسانية ووقفت له ٧٥ فدانا من أجود الاطيان لمعالجة الفقراء مجانا بريعها

واليوم يامولاى تضعون الحجر الاساسى لمدرسة الاميرة فائزة للبنات ليبنى أن فيها على المبادىء الصالحة فى عصركم الميمون فالفضل كل الفضل راجع الى جلالتكم والى ما اقتبسه عبدكم وغيره من رجال أمتكم من صائب رأيكم وعالى نظركم وأجمل بشرى لنجاح هذه المشروعات الجليلة انما هو تشريفكم هذا المكان الذى أصبح يباهى الثريا فى علو الشأن ومما يضاعف اليمن لهذه المدرسة الجديدة هو أن تتوج باسم سمو الاميرة فائزة حفظها الله

وبهذا الولاء أرفع الى الله عز وجل ضراعة حارة أن يحوط ذاتكم الكريمة بعنايته الالهية وأن يمد فى حياتكم الغالية فان فى كل يوم منها قسما جديداً لمجد الامة

الخاتمة

هذا وانى أختتم الحديث عن هذه النواحى من حياتى ، وأعمالى . بالتنويه الى ما لقيته من صاحب الجلالة مولانا المليك المحبوب فاروق الأول المعظم حفظه الله. من عطف كريم ورعاية علية ، إذ تفضل فأنعم على فى العام الماضى بالوشاح الأكبر من نيشان النيل فكان فى ذلك الالتفات السامى أعظم فخر لشخصى الضعيف ، وخير جزاء لجهودى فى سبيل مصر العزيزة

ندوة الاصدقاء الاصفياء

لشرفة فندق الكونتنتال ذكريات غالية . فانها تجمع الكثيرين من الأصفياء المحبين . وقد أصبحت هذه الشرفة ، وكذلك هو الفندق الجميل منتدى لكثيرين من

رجالات مصر العظام ، ينازع أفخر المنتديات فى العاصمة مكانته الممتازة . وقد رأيت أن أخصص جانباً من مذكراتى لإيراد شىء عنها

لعلى كنت أقدم المرتادين لشرفة الكونتنتال . إذ كنت بحكم اقامتى بنفس الفندق منذ أزمان طويلة أقدم زبائنها . وكان فى طليعة من يترددون عليها المغفور لهم حسين رشدى باشا . واسماعيل سرى باشا . وأحمد ذو الفقار باشا ، كما كان يتخلف اليها فى بعض الأوقات المرحوم يوحنا بك باخوم ، وهؤلاء فى رأيى هم طليعة المؤسسين

وفى سنة ١٩١٩ ، إبان الحركة الوطنية ، لجأ صاحب السعادة مصطفى حنفى بك وكيل وزارة العدل السابق ، وكان بصحبة المغفور له طاهر نور باشا وكيل الحقانية سابقا الى الشرفة احتماء من مصادمة عنيفة كانت تجرى فى ذلك الوقت بين فريق من المتظاهرين وبعض الجنود المصريين والانكليز ومن يومها استطاب له المقام فاتخذها على الدوام مكانه المختار . وعلى مرور الايام انضم كثيرون اليها من رجال القضاء والادارة وبعض ممن شغلوا منصب الوزارة وعلى رأسهم حضرات أصحاب الصورة التالية :

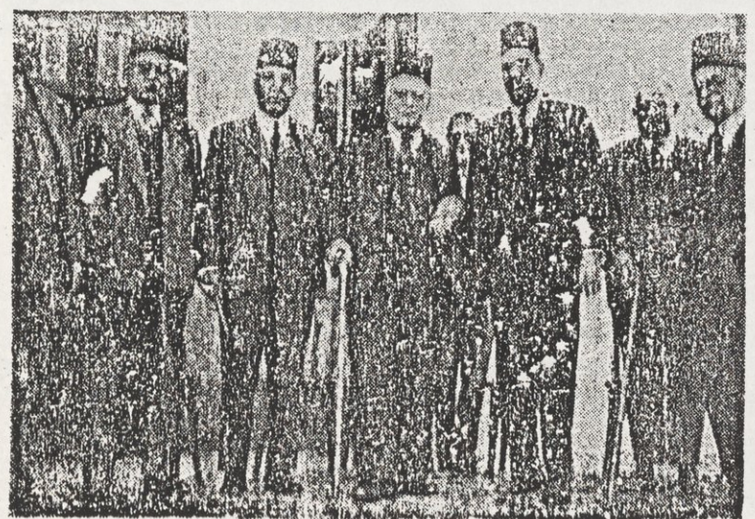

وهم : حلمى عيسى باشا والسيد وحيد الايوبى بك وأمين أنيس باشا وتوفيق عبد الله باشا وعبد المجيد باشا عمر وعبد المجيد ابراهيم باشا وفهمى حسين بك

ومن رواد الندوة أيضا أحمد زيور باشا وعبد السلام الشاذلى باشا ومحمد صفوت باشا ومحمد مصطفى باشا ومصطفى محمد باشا ومحمود حسن باشا واللواء عقل باشا ، وصادق يونس باشا والفريق محمد حيدر باشا ومحمد أمين يوسف بك وعلى وابراهيم يحيى بك وادوار قصيرى بك وأنطون الجميل بك وأحمد عيسى بك وأحمد شرف الدين بك وحسن حسنى بك وحسن شعراوى باشا وغيرهم . . وغيرهم . .

ولقد يحدث كثيرا أو يتصادف اختيار أحد عظمائنا من رواد الندوة لمنصب الوزارة فى صبيحة يوم من الأيام . إذ تنشر الصحف اسمه واسم الوزارة التى اختير لها بينما كان هو قد قضى السهرة مع إخوانه فى البهو الجميل الملاصق للشرفة البديعة التى يجتمعون فيها فى النهار . ومن طرائف مايتنادرون به ، قولهم عن الزميل الذى قفز من «الشرفة» إلى منصب «الوزارة» . ان فلان «استخدم النهارده» . ولعل صاحب هذه النكتة هو سعادة العلامة وحيد بك الايوبى

ومن المناظر المألوفة أن يختلى حلمى عيسى باشا رئيس حزب « الاتحاد الشعبى » بالاستاذ ادوار قصيرى بك سكرتير الحزب، فى ركن من الاركان للتحدث فى بعض شؤون الحزب الداخلية فعندما يراهما وحيد بك يقول مبتسما : الحزب منعقد !

* * *

ومن المظاهر التى تثير الاعجاب أن جميع رواد هذه الندوة يعتبرون أنفسهم كاعضاء اسرة واحدة فاذا مرض أحدهم انتدبوا من بينهم وفدا ليقوم بواجب السؤال عنه نيابة عن الجميع ، واشتركوا فى ارسال بطاقاتهم له داعين بشفائه

وقد حدث أن اختار الله الى جواره شوكت بك المستشار الملكى السابق فانتدبوا منهم ثلاثة أعضاء لمرافقة جثمانه الذى نقل الى الاسكندرية ليدفن فيها

كذلك تلمس بينهم روح التعاون والاخاء متجلية بكل معانيها فعندما أحيل صاحب العزة مصطفى حنفى بك وكيل وزارة العدل السابق الى المعاش تطوع السيد وحيد الايوبى بك لمخاطبة رئيس الحكومة فى ذلك الوقت فى هذا الشأن

فلا عجب اذن ان كان قد أصبح لهذه «الندوة» من الاعزاز فى قلوب روادها ما جعلهم يرقون بها الى مقام « الاندية » الكبرى فى عاصمة « المعز » وشعار ندوتهم « التضامن » و « المعاونة » . . .

BOBST LIBRARY
3 1142 02532 1285

New York University
Bobst Library
70 Washington Square South
New York, NY 10012-1091

DUE DATE	DUE DATE	DUE DATE

* ALL LOAN ITEMS ARE SUBJECT TO RECALL *

Bobst Libr
JAN 25 2000
CIRCULATION
JAN 25 2000

108385